رواية

ضربة جزاء

penalty

إدوارد فيلبس جرجس

مؤسسة يسطرون للطباعة والنشر والتوزيع

رئيس مجلس الإدارة

عماد سالم

المدير العام

أحمد فؤاد الهادى

مدير الإنتاج

أحمد عبد الحليم

الطبعة الأولى
الكتاب : ضربة جزاء
المؤلف : إدوارد فيلبس جرجس
تصنيف الكتاب : رواية
تصميم وإخراج : أحمد عبد الحليم
المقاس ١٤ × ٢٠
رقم الإيداع : ١٧٩٩٢ / ٢٠١٨
الترقيم الدولى : 978 - 977 - 776 - 748 - 4

Email: edwardgirges@yahoo.com

العنوان : المكتبة والمطبعة : ٣ ش صفوت - محطة المطبعة شارع الملك فيصل - الجيزة

التليفون : ٠١٢٢٩٣٠٠٠٢٩ - ٠١١٥٧٧٦٠٠٥٢

Email : yastoron@gmail.com

موقعنا على الفيس بوك : مؤسسة يسطرون لطباعة وتوزيع الكتب

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

١

بُحت الحناجر وقد ألهبتها الهتافات التي تصاعدت لتصطدم بقطيع من السحب، فأسقطت ندعات خفيفة فوق الرؤوس التي خلت من أي شيء سوى عيون يعصف بها القلق، تتشبث بقدمي اللاعب الذي وقف ينتظر انطلاق صافرة الحكم ليرسل بالكرة إلى مرمى الفريق المنافس، لتهتز شباكه مجبرة أمام قذيفة لا يمكن لأي حارس مرمى أن يتصدى لها، أبداً لم تتمرد الكرة أو عصت الأمر غير القابل للنقاش الذي تُصدره هذه القدم التي كتبت لصاحبها الشهرة والثراء، تاريخه الكروي يقول أنه أبداً لم يخسر ضربة جزاء واحدة، كم قاست الشِّباك أمام قذائفه الصاروخية، قالوا إنه صاحب القدم الذهبية، أشار عليه البعض أن يؤمَن عليها بمبلغ طائل، أكثر من ناد من أندية الخارج حاولت أن تجتذبه .

مباراة ستحسم الفوز بالبطولة، المباراة في دقائقها الأخيرة بل في لحظاتها الأخيرة، الفريق الذي ساعده الحظ بضربة الجزاء التي أُحتسِبت لصالحه ينظر إليها كهدية السماء التي لا

تُرفض، وبخاصة أن من سيؤديها هو كابتن الفريق الذي تطيع الكرة قدمه طاعة عمياء، يوجهها ويتلاعب بها كيفما شـــاء .

لحظات وتُحســـم المباراة بل البطولة كلها لصالحه، سيُشعل الجمهور المدرجـــات بالهتاف والألعاب الناريـــة، المباراة الكبرى كانت في رأس اللاعب، لحظات ويقوم بمهمته التي اعتاد عليها ويعرف نتيجتها مسبقاً وتنهال عليه تهاني الفوز وكأنه الفريق بأكمله، كابتن الفريق الـــذي اعتاد أن يهدي الفوز لجمهوره كزهرة أو قطعة من الحلوى، ضربة الجزاء بالنسبة له محسومة ومضمونة وفـــوق المضمونة والبطولة أصبحت من نصيب ناديه، ســـتنطلق صافرة الحكم لتتوقـــف مباراة النهايـــة التي كان ينتظرها جمهور كل فريق علـــى أحر من الجمر، كل منهما يُمني النفـــس بفوز فريقه في المباراة وبالتالـــي الفوز بالبطولة، الفوز في هذه المباراة لا يقل أهمية عن الفوز بالبطولة حيث اعتاد الفريقان الكبيران أن يكون التنافس بينهما شـــديداً، والجمهور يعتبر فوز فريقـــه بطولة أخرى تضـــاف إلى بطولات التنافس الســـابقة، هتافات لا تُبشـــر بالخير انطلقت من أفواه مشجعي الفريق الذي أُحتسبت ضربة الجزاء ضده تَسُبُ الحكم الأجنبي، بالرغم من أن الخطأ كان واضحاً ولا يقبل الجدل، ومن حسن الحظ أن الحكم الأجنبي لم يفهم البذاءات التي قيلت في حقه .

اللاعب الذي سينفذ ضربة الجزاء وبالرغم من قدراته وشهرته وثقته في نفسه يشعر في داخله بأنه أصعب اختبار يمكن أن يتعرض له في حياته، النجاح معناه الصعود درجة أخرى نحو سماء النجومية، والفشل سيهوي باسمه الذي تهتف له الجماهير دائماً إلى الحضيض، الهتافات المشجعة تدوي وتكاد تصم أذنه، الهتافات المعادية تكاد تبلل ثيابه، كدهر انتظاره لصافرة الحكم الذي انشغل للتأكد من أن كل شيء يسير كما يقول قانون اللعبة .

انطلقت الصافرة واندفعت قدم اللاعب قوية جبارة لتنطلق الكرة كالصاروخ نحو مرمى الفريق المنافس، لكنها انحرفت عن قلبه وارتفعت لتصطدم بالعارضة العلوية، وتنطلق بعيداً تردد وا أسفاه، الأسف ليس على نفسها فهي العبد المأمور، تأمرها قدم اللاعب فتنطلق دون نقاش، لم تخالف عن قصد بابتعادها عن جوف المرمى، لكن قدم اللاعب هي التي أخطأت في التوجيه .

ساد الصمت لثوان وكأن الطير على الرؤوس، أو أن الجمهور لا يدرك ما حدث، بعدها كانفجار قنبلة موقوتة انطلقت حناجر جمهور الفريق المنافس بهتافات صعدت إلى السماء وتخطتها وأزعجت الملائكة في تسابيحها، همهمات ممضوغة وغير مفهومة انطلقت من أفواه جمهور الفريق الذي أدار له الحظ ظهره وأضاعت عليه الركلة الطائشة الفرحة والأماني معاً، الهمهمات الممضوغة تحولت إلى كلمات فقدت صوابها

وانطلقت كشرارة أشعلت النيران، حرب لا هوادة فيها أُستخدمت فيها جميع الأسلحة، لم يَسْلم الملعب ولا الرؤوس من مقذوفات من كل الأنواع، النيران اشتعلت في أحد جوانب المدرج ودوت صافرات سيارات الإطفاء، اللاعبون هربوا إلى الغرف الخاصة بهم، الحرب اشتدت أوراها ولم تنته إلا بوصول قوات مكثفة من الشرطة وسيارات الإسعاف لنقل المصابين، البعض في حالات حرجة ويقال أن أحدهم طارت روحه بعيداً عن جسده كالكرة التي فقدت صوابها واصطدمت بالعارضة وخرجت بعيداً عن جوف المرمى، غرفة استبدال الملابس تحولت إلى سرادق عزاء، الجميع يحاولون تهوين المصيبة على اللاعب الذي كاد أن يفقد صوابه، حتى الفريق المنافس نسى فوزه أمام الدموع المنهارة من عينه، هذه الحقيقة تغيب عن أذهان مشجعي الكرة، عقب انتهاء المباراة يتصافح الفريقان، والمأساة كلها تنصب على المشجعين من الفريقين وأفعال طائشة تُخرج عن العقل تماماً .

يقولون المصائب لا تأتى فرادى، أكثر من مصيبة أطبقت فوق رأس اللاعب، الإحساس بالذنب لخذلانه لفريقه وجمهوره، اسمه الذي طالما سمع التقديسات اليوم سمع اللعنات، هذا الاسم الذي اعتاد أن يتردد على الألسنة وكأن كرة القدم أُرسل لها أحد الأنبياء .

المصائب المادية لا تقبل العزاء، شقة تطل على النيل وعَده بها أحد رجال الأعمال إذا غزت أهدافه مرمى الفريق المنافس، آخر

وعده بسيارة حديثة، رجال الأعمال وعدوا بهدايا كل واحدة منها تمثل ثروة، وكأنهم يتنافسون على رضاء هذا اللاعب الذي اشتهرت قدمه حتى في ملاعب الخارج، مصائب من كل نوع، مصيبة أخرى لها مذاق أشد مرارة من المر ذاته، كيف سيواجه خطيبته وقد تخلت عنها الثقة في قدراته التي يقرأها دائماً في مرآة عينيها، قَبَلته قبل أن ينزل إلى الملعب وقال لها أن هذه القبلة أفضل من منشطات العالم كله، وهي التي ستدفعه ليرسل الأهداف إلى شباك مرمى الفريق المنافس دون عدد أو حساب، كل شيء أدار له ظهره في لحظة، كشمعة ضاع ونسها أمام هبة ريح غادرة فأطبق الظلام البغيض، ظلام من الداخل وظلام من الخارج، ذهب الجميع وأصر أن يبقى وحيداً وكأنه يخشى ملامة صامتة سيقرأها في عين خطيبته، لم يسمع خطواتها وكأن المصيبة غزت أذنيه أيضاً، وقفت أمامه، نظر نحو وجهها، هل هي خطيبته بالفعل، هل هي خطيبته التي كان يمزح معها قبل بداية المباراة، ابتسامتها مشجعة وكلماتها مهونة، لكنه قرأ أو توهم أن نظراتها تلومه وتعايره بفشله في أن يأتي بالفوز لفريقه والفوز بالبطولة ليسعد جمهوره، وقد تكون نظرات رثاء لاسمه الذي هوى من السماء إلى الجحيم في لحظة، شيء ما في عقله تحول عن مكانه الطبيعي، شيء يسمع صراخه كمجنون يعدو بين القبور صائحاً : أنت لم تعد أنت، نجوميتك طارت وذهبت مع الكرة خارج المرمى، من اليوم أنت

نكرة ولا تصلح سوى أن تلعب مع الصبية في الحارة، قدمك لن تمس سوى الكرة الشراب .

انقاد لقبضة خطيبته ولم ينبس بحرف لكن الكلمات الصامتة لم تتوقف، لماذا كل شـــيء بدا وقد أصابه التمرد، حتى سيارته تريـــد أن تنحرف بعيداً عن قيادتـــه، تريد أن تخرج عن الطريق وتصطدم بأي شـــيء كما خرجت الكرة عن هدفها .

ظـــن الجميع أن ما به لا يزيد عن خلطة من الحزن ممتزجة بالخجل والأســـف لن تلبث أن تذوب فليست هي النهاية، وكم من ركلات طاشـــت مـــن غيره في جميع الملاعـــب ومن لاعبين حملوا من المهارات الكثير.

نام واســـتيقظ وبالرغم من التعليقات الاستفزازية سواء في الصحف أو وســـائل الإعلام المرئية، ابتســـم وقال جملة برر بها الموقف بالكامل «لست الأول ولا الأخير»، اندمج بعدها مع الحياة حتى عاد للملعـــب ثانية في بداية العـــام الجديد، أحس كما لو كان غريبـــا عن الأرض الخضراء، أو أنهـــا المرة الأولى التي تدوس قدماه هذا المســـتطيل الأخضر الـــذي يقف على طرفيه مرميان بعوارضهما وشـــباكهما، ينظـــر حوله ثم يلتفت نحو الزمـــلاء وكأنهم غرباء وأنها المـــرة الأولى التي يراهم، بالرغم من أنه قضى معهم بالأمس أكثر من ثلاث ســـاعات في تدريب مســـتمر، وكانت كل أحواله مشـــجعة ولا تختلف عن سابق

مهارتها، عقله وسوس له بأن الجمهور ليس هو الجمهور، هل تبدل بالفعل؟! ،هل يرى في أيديهم قطع الأحجار والزجاجات الفارغة وكأنهم أتوا فقط لقذفه واسالت دماء رأسه ؟!، هل هو تار مبيت منذ مباراة الهزيمة وفقد البطولة .

يسمع هتاف تشجيعهم لكنه يطن في أذنه كما لو كان نواحاً وبكاء، قدماه تتحركان بآلية مطلقة، الفرصة، الفرصة، أمام المرمى وحيداً، من السهل جداً أن تهتز شباك مرمى الفريق المنافس بصاروخ اعتادت قدمه أن تطلقه لتهتز جوانب الملعب وما حولها بهتافات الجمهور المشجعة، لكن أين المرمي، أين عوارضه، لماذا انضمت اليمنى إلى اليسرى وأطبقت العلوية عليهما، كيف ضاق بهذا الشكل حتى أصبح وكأنه ثقب أبرة، كيف سيصوب القذيفة نحو ثقب أبرة، كيف ستنفذ الكرة من خلال ثقب يلزم له نظارة معظمة، هل هناك مقاييس جديدة للمرمى لم يخبره بها أحد حتى مدربه، ما هذا الضجيج الذي يأتي من ناحية الجمهور، ماذا أفعل لكم ؟!، لست صاحب معجزات حتى أسجل من خلال ثقب أبرة، ضاعت الفرصة، ربتات الزملاء تطيب خاطره، المباراة لا تتوقف وفرصة ذهبية مع ضربة جزاء يمكن أن يعوض بها الفرصة الضائعة، يغسل بها الإساءة إلى جمهوره عندما تسبب في الخسارة الفادحة في الموسم الماضي، وقف أمام الكرة ينتظر صافرة الحكم لتنطلق قدمه التي طالما

أشعلت الملعب، كم الساعة الآن، سؤال انطلق يجول داخل رأسه، هل حل الليل وسقط الظلام ؟!، أين الأضواء الكاشفة !!، وحتى لو أنارت الأضواء الكاشفة أرض الملعب كيف سأسجل من خلال ثقب الأبرة، بالضبط ثقب أبرة، ما بين ثلاث خشبات المرمى تحول إلى ثقب أبرة، إنها ليست حبات العرق التي هبطت من جبهته إلى عينيه كقطرة حارقة، وليست المياه التي تغمر بدنه ما اعتادت أن تفرزه مسامه نتيجة المجهود، هل هي سيول آتية من السماء، هل الأمطار هطلت فجأة، عندما بدأت المباراة كانت الشمس ترقص على صفحة السماء، لم يخبره أحد أو تعلن النشرة الجوية أن الطقس سينقلب والمباراة ستكون تحت رحمة سيول السماء، لكن لا مظلات في أيدي الجمهور، هل ما يسمعه صافرة الحكم، نعم، أمر بأن تنطلق قدمه، أين ذهبت الكرة، هل أرسلها هدية إلى المشجعين، ليست في مكانها الذي اعتادت عليه داخل مرمى المنافس، حارس المرمى يقف والابتسامة تملأ وجهه وكأنه نجي من الغرق في لجة الأمواج، اعتاد في هذه المواقف أن يشاهد الحارس يرتدي الحداد وينعي الهدف الصاروخي الذي عجز عن مجابهته، أين ذهبت الكرة ؟!!

هل اخترقت الشباك وذهبت إلى الفضاء تدور مع الأقمار والابتسامة على فم حارس المرمى لم تكن سوى ابتسامة الخجل لعجزه، أين ذهبت الكرة؟!!، الإجابة جاءت كعصا غليظة

هبطت بكل قوة لتصيب رأســـه وتكاد تخرجـــه عن وعيه، إجابة مزدوجة، هتافات مشجعي الفريق المنافس وشتائم وسباب فريقه، أدرك والأمر لا يحتاج إلى ذكاء أن الكرة ذهبت إلى أي مكان إلا أن تكون اخترقت مرمى المنافس، أول مباراة في الموســـم الجديد انتهت بالهزيمة، مواساة أشـــد من التعنيف يتلقاها وكأنه في مأتم، اللوم الكبير قرأه في عـــين خطيبته بالرغم من كلماتها المشـــجعة المهونة، أولاد الحلال التفوا حوله، من قال أنها شـــر العين الحاسدة، ومن قال أن هناك من سحر له ولا بد من فك هذا السحر، إشـــاعات تقول إنه كان يتعاطى الحبوب المنشطة وتركت تأثيرها عليه لأي أسباب غير معروفة، أسئلة حائرة من خطيبته تحمل بعض الشكوك، امتلأ كل شيء بالشكوك حتى جيوبه، أصبح يشـــعر وكأن يده إذا اندفعت إلى جيبه لن تُخرج سوى شك من شـــكوك كثيرة نبتت في كل مكان حتى أسفل وســـادته، لم تحمل المباريات التالية ســـوى الهزائم أمام مرمى الفرق المنافسة، لم يتغير أي لون ,

فقط اللون الأســـود، المرمى يضيق أمـــام عينيه حتى يصبح مثل ثقب الأبرة، الخوف ينهش أفكاره، كيف سيسجل من خلال ثقب أبرة، كيف ســـتندفع الكرة من خلال هذا الثقب الذي لا يقبل ســـوى الخيط الرفيع، عضلاته المتوترة ترتعش وتنتفض كمصاب الحمى وتنتهي البانورامـــا المخيفة بفرار الكرة بعيداً

عن المرمى رغم انفراده بحارسه وشباكه التي طالما تمزقت أمام تصويبة صاروخية، المصائب تحط فوق رأسه واحدة تلو الأخرى، أصبح ينتظر يوم المباراة كيوم وفاته، شعور بأنه يُحمل في نعش ولا ينقص سوى الصراخ والعويل وبضعة من المشيعين، فقد الأمل أن تعود نفسه إلى نفسه أو تلتصق قدمه الهاربة إلى جسده أو أضعف الأيمان ينفرج ثقب الأبرة حتى ولو قليلاً، لماذا لا تعود عوارض المرمى إلى مكانها الطبيعي، لا يطمع في اتساعها خارج الحدود القانونية، بل لو أرادت أن تنقص بعض الشيء لا مانع، المدرب لم يداخله اليأس، الأمل لم يفارقه لحظة، (الكابتن مروان الشرنوبي) تاريخ مهاراته يشفع له وَسِجل أهدافه التي هتفت لها الحناجر لا يُمحى بسهولة فلا داعي أن يفقد الأمل فيه سريعاً، لكن الأمل هو أول من فقده في نفسه، لم يعد يطيق أن يرى الملعب ولا حتى الكرة .

كانت فكرة خطيبته أن يُصر على إجازة يبتعد فيها عن الملعب ويسارعا بالزواج وخلال شهر العسل يمكن أن يستعيد ثقته بنفسه، رحب بالفكرة وكأنها المنقذ للخروج من الكابوس الذي يعيش فيه صحوته ورقاده، المسألة ليست هزيمة الملعب فقط، لكنها الحالة التي تنتابه وهو بينه وبين تسجيل الهدف قاب قوسين أو أدنى، كيف يضيق المرمى ويصبح كثقب الأبرة، كيف تتحرك العوارض للداخل وتضيق وتضيق أمام عينيه

وكأنها بفعل فاعل، هل يتوهم الرأس الشيطانية فوق العارضة العلوية للمرمى، هل هي حالة وقتية كما هونت عليه خطيبته وبعد الزواج ورحلة شـــهر العسل ســـيعود وكأن شيئاً لم يكن، ويســـتعيد ثقة جمهوره والأهم أن يعـــود المرمى عن جنونه ولا تُلاعبه عوارضه .

الأيام التالية كانت ممتلئة بالحركة، إعداد شـــقة الزوجية والإعداد لحفل الزواج، كل شيء متاح وبسهولة طالما وُجِد المال وهذا لا ينقصـــه ولا ينقص خطيبته، خطيبتـــه أرادت للحفل أن يكون إســـطورياً كما يقولون حتى تدخل السعادة إلى قلبه وتطرد من داخله يأس وأحزان الفترة الســـابقة، ويعود بعد شهر العسل إلى الملعب بمهارة أكثر وشهرة جديدة تضيف إلى شهرته القديمـــة مجداً أكثر وأكبر، عاد إليه مرحه وتفاءلت خطيبته وقال هو أنها كانت فترة نحـــس كما يقولون وذهبت إلى غير رجعة، تذكر الفيلم الذي شـــاهده من قبل وأصر أن يشـــاهده ثانية الذي يحكي عن ملاكم صعدت شهرته إلى عنان السماء، فاز في جميع المنافســـات ولم يخسر مباراة واحدة وفجأة لاحقته أكثر من هزيمة وكاد أن يهـــوى إلى باطن اليأس، لكن إصرار صديقته واستبسالها في تشجيعه أعاد إليه ثقته بنفسه وصعدت شهرته إلى أعلى مما كانت عليه، ابتسم وقال إنها نفس قصته الفارق أن هذا اللاعب ميدانه كان فوق حلبة الملاكمة وميدانه

هـــو أرض الملعب، بل إن موقفه أكثر تفاؤلاً ومعه خطيبة جمع بينهما الحب الذي سيتوجه الزواج وليست مجرد صداقة، أحس بسراج الأمل يُطفيء كل ظلمات الأيام الماضية وعادت الابتسامة إلى شـــفتيه، أطبقت يده تقبض على يد خطيبته كلما تقابلا لا يريـــد أن يتخلى عنهـــا، قالت ضاحكة في إحـــدى المرات أنه يشبه الشـــرطي الذي يقيد معصمه إلى معصم المتهم خوفاً من هروبه، أجاب ضاحكاً بأنه لولا إحساسه بحبها وأنه يسكن قلبها لانهار بالفعل واستسلم لهزائمه وما فكر في النهوض ثانية، لكن ابتسامتها هي التي تدفعه دفعاً للإمام للعودة بأفضل مما كان عليـــه، الأمنيات الوردية لا تنقطع وســـارت إلى جانبها خطوات إعداد عش الزوجية إلى أن أصبح تحفة فنية ولم تنقصه ســـوى غرفة النـــوم، كرغبته أجلا غرفة النـــوم للنهاية حتى يتفرغا لها؛ لأنها على حد قوله ســـتكون الجنة التي ستجمعهما معاً .

كاد عقله أن يفر من داخل رأســـه، إن لم يكن قد فر بالفعل، لا ليس عقلـــه فقط، لقد فر منه كل شـــيء وهو داخل محل المفروشات الشـــهير جداً، يقف أمام قطع غرفة للنوم تسمى في عالم المفروشات تحفة فنية، عبر ثمنها الباهظ عن قيمتها، شاهد كثيراً من المسلســـلات الأجنبية التي تحكى عن الثراء الفاحش لكـــن أبداً لم ير مثلها، تطلعـــت خطيبته إلى وجهه الذي تتغير ألوانـــه تباعاً وعيناه المحملقتان، ظنت أنه الانبهار بقطع الأثاث

التي تتبارى في منافسة بعضها، خاصة أنها هي التي اختارت هذا المعرض الذي لا يفكر أي أحد أن يلج من بابه إلا إذا كان حساباته في البنـــك قادرة أن تدفع ثمن المعرض بالكامل دون أدنى تأفف، قدماه التصقتا بالأرض أمام التســـريحة ومرآتها الرائعة، عيناه لم تكن تحدقان في فن نقوشاتها، وجهه لم يكن أكثر من تمثال شمعي، هربت كل حواســـه ولم يبق سوى الخوف الذي كاد أن يفجر أنفاسه، هرب كل شـــيء من داخله، تبعثر عقله وتفتت وطار في كل اتجاه، كل أحاسيســـه تركزت في الشـــيء الذي يراه أمامه ولم يعرف من أين أتى، كيف تتبع أقدامه من الملعب إلى هنا لينتزع روحه ويتركه كجثة هامدة، الرأس الشيطانية الـــتي كان يتوهم أنه يراها فوق العارضة العلوية للمرمى والتي كانت تتلاعـــب بعوارضه، تضيقها حتـــى تصبح كثقب أبرة، قررت أن تصاحبه، ها هي داخل المرآة، قفزت فوقها، عادت لتتربع فوق سطح التسريحة وكأنها تسرق المكان الذي ستتربع فوقه زجاجة العطر الذي يسكره عندما يدخل مع خطيبته في غيبوبة قبلة تُعتصر فيها الشـــفاه، مصيبة ســـوداء هل ما يراه حقيقة أم من نســـج الخيـــال أم كابوس أتاه في المنام ليفســـد فرحته، لا أنها الحقيقة، نفس الوجه، الضحكة الشـــيطانية التي تُظهر الأسنان الحادة كخناجر ملطخة بالدماء، جذبته خطيبته من يده بدلال وضحكة معمرة بالسعادة تقول : هيا، كفى، أرجو أن يكون انبهارك بها دائماً، ولا تحاول الهرب منها بعد شهر العسل،

انقاد ليدها ككفيف منذ ولادتـــه لا يعرف ما حوله ولا ألوانه وهي تظن أنه لا يزال واقعاً في انبهاره وأحلام الغد القريب التي ســـتجمعه وإياها في غرفة واحدة، وكم سيشاهد هذا الفراش من ألوان الحب ومتعته، لم يشـــأ أن يخـــبر خطيبته عن الرأس الشـــيطانية التي تتبع خطواته خوفاً من الشك في جنونه .

٢

كانت ليلة أسطورية، حاول الجميع أن تكون أسطورية بالفعل، زملاء الملعب قاموا بكل ما يمكـــن القيام به ليكون حفل زواجه حديث الســـاعة، كابتن الفريق مروان الشرنوبي تناقلت أخباره كل وســـائل الإعلام، صوره وجانبه عروســـه تصدرت الصحف والمجـــلات والقنـــوات التلفزيونية، الاحتفالية الرائعة أنســـته هزائمه وثقب الأبرة، وجه خطيبته «سمية» والتي ستصبح منذ هذه الليلة زوجته، غســـل ما بداخله من يأس وإحباط ولم يعد في ذهنه سوى فكرة شهر العسل وأيامه الجميلة التي ستجمعهما معاً .

لم ينتظـــر حتى نهاية الحفل وبغمزة من عينه انســـحبا إلى غرفتهما بالفندق الشـــهير، قالوا له إن بعض الشـــراب المنعش يحرك الدماء، شـــيئ أقوى من الشـــراب المنعش حرك كل ما بداخلـــه، وانتهى إلى رأســـه، جحظت عينـــاه وكأنهما تودان أن تهربا مـــن هذا الرأس الذي تبدل في ثـــوان، الغرفة تحولت

إلى ملعب كبير، لم يكن به سوى مرمى وحيد، مرمى الفريق المنافس، هتاف الجماهير، صافرة الحكم، ما الذي بدل ثوب سمية الأبيض، مجنونة سمية، قد يكون على سبيل المزاح، استبدلت ثوب العرس، ارتدت شورت وفانله، نفس ملابس حارس المرمى في أول مرة فشل في أن يسدد فيها الكرة داخل المرمى، تصبب عرقه، سمية حولت الليلة إلى مباراة، مباراة يمثل هو الفريق بالكامل ولا بديل عن الفوز، الفوز والفوز فقط، عدد الأهداف لا يهم، لكن في النهاية لا بد من الفوز، عيناها متيقظتان تراقبان الكرة التي يقف خلفها متحفزاً، انطلقت صافرة الحكم، ثقب الأبرة، كيف سيرسل الكرة من خلاله، لا، لا يستطيع، لم يسجل أي لاعب عبر تاريخ الكرة هدفاً من خلال ثقب أبرة، طاشت الكرة خارج المرمى، فقد السيطرة على كل شيء، عضلات جسده كله ارتخت وأصبحت غير قادرة على التصويب، المدرجات التي امتلأت بها غرفة النوم ممتلئة عن آخرها، الهمهمات الغاضبة للجمهور تحولت إلى طنين كاد أن يخرجه عن وعيه، الجميع يشاهدون هزيمته .

استلقى إلى جانب عروسه يسبح في عرقه، نفس النظرة المشجعة المهونة التي رأها داخل عينيها يوم أن طاشت ركلته لأول مرة، نظرة مهونة مشجعة، ربتات يدها أحس وكأنها مطرقة تهوي فوق رأسه في ضربات متتالية تنتقل فوق جسده

بالكامل حتى أصابع قدميه، شعور بأن عظامه تتهشم، كاد أن يصرخ فيهـــا بأن تتوقف لأن ربتاتها تُشـــعره بأن رجولته ماتت وفرت كالكرة خارج المرمى، نهض إلى الحمام، وقف أسفل المياه علها تطفيء النيران التي تشوي عقله وترفض أن تهدأ، خرج إلى الشـــرفة، لحقت به سمية، همست بصوتها الرقيق بأن الكثيرين يحـــدث معهم مثل ما حدث معه في الليلة الأولى وخاصة من لم تكن له تجارب سابقة، كاد أن يقول لها أن المشكلة في ثقب الأبرة، المشكلة في ارتخاء كل عضلاته أمام المرمى، عضلة التصويب لم تعد بها حياة، المشكلة في صافرة الحكم، أزعجته وطار من رأسه الانتعاش ولم يبق داخلها ســـوى خمود كخمود الموت، المشكلة في هتافات الجمهور التي تضعه كطرزان عصره وهو يشـــعر في داخله بأنه ودع كل ما ينتمي إلى الشجاعة، عجزه عن التسديد أمسك لســـانه عن حديث قد يزيد من سوء الصورة ويلطخها بأصباغ خارج الألوان المفروضة، عادا إلى الفراش، قال في داخله أنه قد ينفك النحس ويســـجل في الشوط الثاني، لكن الحظ وكأنه طار بجناحين من أي نافذة مفتوحة أو تسرب من أي ثقب لأن النوافذ كلها مغلقة، المرمى بدأ يضيق ويضيق، ثقب الأبرة لا يتغـــير، عاجز أن يأمر عضلته أن ترســـل ركلة قوية تخترق شـــباك المرمى ويسمع الهتاف الجبار من فم جمهوره الوحيد في هذه الليلة يعلن عن فوزه، آه لو فاز في هذه المباراة ستنسيه كل مرارة الهزائم الماضية، الهزائم السابقة لها علاج قد يكون ثقيلاً

على نفسه لكنه الدواء، يعلن عن اعتزاله وبالتأكيد سيبقى له تاريخه، مباراة الليلة ليس لها علاج، الهزيمة هزيمة مستقبل بأكمله، ليست هزيمة القدم وركلة خارج حدود المرمى، هزيمة رجولة يقرأها في عين زوجته سمية، آه كيف حدث هذا، هل يصدق أنه نوع من السحر، لكن هل السحر عُمل له لكي يُفَشِلَ كل الأهداف في الملعب وخارجه وحتى على الفراش، أي شيطان هذا الذي يُلقي بكل نجاساته في طريق حياته، أي شيطان هذا الذي يصر على أن تكون كل حياته متوقفة أمام ثقب الأبرة فالأيام التالية لم تقل أكثر مما قالته أول ليلة لزواجه، العجز التام عن أن تكون له السيطرة على أي عضلة في جسده، العجز التام على تسيد الموقف ودحر هزيمة أقسى من الموت أمام جمهوره الوحيد المتمثل في زوجته وداخل غرفة نومه، نظرة العينين عندما تنقلب من التهوين والمواساة إلى شفقة ثم إلى شكوك تكون موجعة كطعنة الخنجر، الأمل دائماً يُبقي بعض الشيء يتأرجح بين الكثير والقليل، بين الفرجة والانفتاح الكامل، رحلة شهر العسل إلى إحدى الدول الأوروبية لم تغلق باب الأمل تماماً، يقولون أن للسفر سبع فوائد وهو لا يريد سوى فائدة واحدة، أن يعود إلى ما كان عليه، أن يتسع ثقب الأبرة أمام عينيه، أن تعود خشبات المرمى إلى وضعها الطبيعي، تتسع يساراً ويميناً ولأعلى بمقاييسها التي اعتاد عليها طوال حياته التي قضاها في الملاعب وشهدت على أن تصويباته لا تنافسها أي تصويبات

أخرى، أن تشهد غرفة النوم انتصاراً باهراً ويشق هتاف الجمهور سقفها ويطير من النافذة ليعلن أن المتوقف أمام ثقب الأبرة انتصر على ضيقه وسجل هدفه التاريخي، هزيمته فوق الفراش هزيمة باطلة لا يعرف من الذي أصدر له بطلانها كهزيمته في الملعب وهو الهداف الذي لا يشق له غبار، لا يستطيع أن يخبر زوجته حتى لو كان من باب البراءة المؤقته كالذي يخرج من الحبس بكفالة لكن القضية لا تزال، ليس من اللائق أن يحكي لها عن أيام طيشه وشهادة أكثر من مومس وعشيقة بأن أهدافه لا تطيش وهي التي تظن فيه العفة وأنها الملعب الوحيد وأنه لم يقف أمام أي مرمى سوى مرماها، الفكرة التي بنت عليها هزيمته في الليلة الأولى ككثير من الرجال الذين ليس لهم سابقة تجارب في ملاعب أخرى .

هل يجازف حتى ولو كان مدعاة للسخرية ويحكي لها عن الرأس الشيطانية وأنيابها الملطخة بالدماء التي تتبعته من فوق العارضة العلوية للمرمى إلى محل المفروشات، ثم رآها تقفز على التسريحة من داخل المرآة إلى خارجها، هل يجازف ويحكي لها أنه تتبعته ليلة الزفاف ورآها تلعب وتتلاعب على سطح التسريحة فارتخت عضلته بعد أن كاد يصيب الهدف .

الرحلة إلى الخارج أحيت الأمل في نفسه ونفس سمية، يجب أن تتم رحلة العلاج في سرية تامة حتى لا يكون مضغة في الأفواه، التطفل الإعلامي لا يرحم وينظر إلى نشر الفضائح على أنه النجاح الباهر . نتيجة الفحص في إحدى المستشفيات الأوروبية قالت أنه سليم ومن المفروض ألا يعاني مما يعاني منه، لم يستطع أن يوضح للطبيب بداية مصيبته عندما عجز عن تسديد ضربة الجزاء داخل مرمى الفريق المنافس وعوارضه التي بدأت تتحرك للداخل ولأسفل وتضيق وتضيق حتى أصبحت كثقب أبرة وما تلاها من هزائم في المباريات التالية، لم يستطع أن يفصح عن الرأس الشيطانية التي تقتفي خطواته منذ ذلك اليوم، لم يستطع أن يبوح له بأن هذه المصيبة لازمته حتى ليلة زفافه واقتحمت عليه غرفة النوم، التي تحولت إلى ملعب وجمهور وهتافات مع وضد، وصافرة الحكم وعجزه التام أن يسجل هدفه كباقي الرجال، وأن هذا الفشل يلازمه حتى الآن كالفشل

الذي أصابه وخطف شهرته كلاعب لا يشق له غبار أمام المرمى، وأن الكرة كانت عبدة لقدمه وأنه طوال حياته لم تعانده ضربة جزاء إلا بعد ذلك اليوم الذي كان سبباً أن تذهب فيه البطولة للنادي المنافس وما تلاها من حرب العجز أمام ثقب الأبرة، أضاء الأمل وجه زوجته وهي تستمع إلى تشخيص الطبيب الذي قال إنه ذكر ككل الذكور، ولا يحتاج حتى إلى بعض المقويات، وأن ما به قد يكون سببه حالة نفسية فقط ستزول مع الوقت، كاد أن يسأله إن كان هذا التشخيص سيسري أيضاً على ضربات الجزاء وتسجيل الأهداف في مرمى الفريق المنافس لكنه اكتفى بتحليل الموقف داخله، بأن الأمر بالتأكيد سيسري على الجانب الآخر أيضاً، لأن المشكلة كلها محصورة في ثقب الأبرة وعجزه أمامه، بالتأكيد الأمر ليس صحيحاً وأنه أمام كل محاولة لتسديد الكرة يضيق المرمى فعلاً، لكن الصحيح هو شعوره بارتخاء كل عضلة في جسده، أمام هذا التخيل الذي وصل إلى درجة الحقيقة ويتسبب في عجزه، حاول أن يطرد عن ذاكرته تلك الضحكة الغريبة الصادرة من الرأس الشيطانية التي كانت ترتكز فوق العارضة العلوية للمرمى في أول مرة شاهد فيها ثقب الأبرة، والتي كانت سبباً في ضياع البطولة من فريقه وتكرار المشهد خلال المباريات التالية .

هل من المعقول أن يحكي للطبيب أن نفس هذا الرأس انتقلت إلى غرفة النوم في أول ليلة من زواجه، رآها ترتكز فوق مرآة التسريحة وسمع صوت الضحكة وكاد أن يسأل زوجته إن كانت سمعتها، لكنه آثر الصمت حتى لا يضاف الجنون إلى علته، الفرق بين ظهورها في الملعب وغرفة النوم أنه في غرفة النوم تغير مكانها، آخر مرة رآها في وجه زوجته وأنه على استعداد أن يقسم أنه رأى أسنان زوجته الملطخة بالدماء وفمها المفتوح عن آخره ترسل تلك الضحكة التي تكاد أن تخرجه عن صوابه، ضحكة شيطانية لا يمكن أن تكون لزوجته الإنسانة الوديعة الرقيقة، لم يعد يحتاج لأي برهان أنه تحت تأثير شيطاني لا يعلم من أي شر أتى إليه وهل يوجد من يكرهه ويحقد عليه فسحر له ؟!،

يقولون إذا عُرف السبب بطُل العجب، لكنه يعرف الداء ولا يجد له دواء، فقد السيطرة تماماً على عقله وعقله فقد السيطرة على جميع أجزاء جسده، الخوف تمكن منه، الأوهام والخيالات المخيفة أصبحت تأتيه من كل جانب، أسئلة تسابق بعضها تداهمه ولا تنتظر الإجابة، ما إن ينتهي إحداها حتى يقفز الآخر وكأنهم على وفاق فى ضبط موعد الهجوم، أحد الأسئلة التي عجز عن الجواب عنها، هل إذا انتصر وسجل في مرمى الفراش سيكون نهاية متاعبه أمام مرمى الملعب أيضاً؟ أم العكس إذا نجح أمام مرمى الملعب سينجح أمام مرمى الفراش، لكن هل

سينتظر أو تنتظر سمية حتى يعود إلى الملعب، قد تنتظر سمية لأنها تحبه وتخاف على مشاعره، لكن بالنسبة له، هل سيستطيع الانتظار وينعي شهر العســـل الذي سيضيع في محاولات فاشلة للتسجيل والإحساس البغيض بأنه يغرق في بحر عرقه ولا يوجد من ينقذه، هل سيســـتيقظ في الصباح يحاول ألا تتقابل نظراته مع نظرات سمية حتى لا يقرأ فشله من خلالها، ويشعر بغصة الرجولـــة المفقودة تكاد تغلق عليه الهواء وأنه يكاد يختنق، كاد أن يضرب نفسه بالحذاء عندما أشار عليها بالذهاب إلى السينما ورأى البطل والبطلة ينتشـــيان بسعادة الحب فوق الفراش، نظر من ركن عينه نحو سمية ورأى في عينيها نظرة الحرمان كطفل فقير لا يمتلـــك ثمن قطعة حلوى أثيرة لديه، ينظر إليها لكن الفقر يمنعه من مجرد الاقتراب أو لمســـها، سمع من فمها تلمظ الحرمان، أمسك بيدها يقبلها وأحس بثلوجة أطرافها، وكأن الدماء الساخنة هربت إلى الشاشة تتجاوب مع البطل الذي غمر حبيبته بالحب فاســـتكانت ملامحها بالرضـــا والامتنان، حاول عندما عاد أن يكون مثل بطل الفيلم لكن الرضا والامتنان أبداً لم يقتربـــا من وجه سمية كبطلة الفيلم، لم يتمالك نفســـه، صرخ صرخة دموية : أين ما قاله الطبيب، أين تشخيصه الفاسق بأنني ســـليم ولا يعيب رجولتي حتى شـــبه عيب، أين ما أظهرته أداة رجولتي من تقدير واحترام لمهنته ونفرت لتحيته، هل كان يســـتخدم الســـحر ؟!، هل أطباء الخارج يلجأون إلى الشعوذة

الطبية وسرعان ما تفقد تأثيرها، حدق في المرآة، جحظت عيناه، صرخ صرخة أكثر دموية وتلفظ بســـباب تملص منه الحياء، أمسك بزجاجة العطر الذي يعشق شذاه وهو يقبل عنق سمية، كانت الزجاجة ترقـــد إلى جانبه فوق الفراش وهو الذي طلب منها أن تكثر منه لأن رائحته تنعشه، قذفتها يده لتحطم المرآة وهو يصـــرخ بدموية أكثر وأكثر : هل أتيـــت حتى هنا أيتها الملعونة ؟!، هـــل كنت بالطائرة معي ؟!، لم أرك، من الذي دفع لك ثمن التذكرة؟ من الذي دفعك لتتبع خطواتي وتفسدي علىَّ حياتي، هل أخذت إذن من مدير الفندق لتدخلي إلى داخل المرآة، أيتها الحقيرة ســـأدفع ثمن المرآة الـــتي حطمتها بالعملة الأجنبية، هذا لا يهم، أرجوكِ أن ترحلي لقد حطمت مأواك فلا تبحثي عن مأوى آخر داخل غرفة النوم، أرجوكِ ارحلي ولا تدعي شيطنتك تفسد كل شيء، لقد أفسدتِ علىَّ مرمى الملعب، فلا تفسدي علىَّ مرمى الفراش أيضاً، يمكنني أن أعتزل الملعب لكن لا أستطيع أن أعتزل زوجتي، زوجتي سمية، حبيبتي سمية . قفزت سمية مرتعبة تلملم كل شـــيء، ثيابها التي تبعثرت دون فائدة، خوفها من الهستيريا التي تملكت مروان، خوفها من هذا الكائن الذي يكلمه كما لو كان موجوداً معهما في الغرفة ويشـــاهد عريها البائس، خوفها من كل شيء حولها، خوفها من الخوف ذاته، وضعت يدهـــا فوق ظهر مروان وكأنهـــا تجازف وتلمس الكهرباء وأن التيار ســـيصعقها ويلقيها جثة هامدة، على عكس

ما توقعت، لم يصعقها التيار، لم يسـر في جسـدها حتى مجرد فولت يمكنه أن يشعل شمعة صغيرة، على عكس ما توقعت، سرت في جسـدها رعدة ثلجية انتقلت إليها مـن الظهر المثلج الذي لامسته، وكأنه قطعة من اللحم خرجت لتوها من المجمد، على عكس ما توقعت، همـدت الثورة ومات الانفجار الكهربائي، دفن رأسـه في صدرها وانخرط في بكاء يفتت الأكباد أو على الأقل فتت كبدها هي، بكاء تسـمع فيه صرخات الوليد وهو يتلمس قطرات من الحليب في صدر أمه، الحليب موجود ويملأ الثديين وصنـع من كل واحدة كرة تقترب في حجمها من كرة الملعب لكنـه لا يعرف كيف يمتصهما، تحملـت ثلوجة قطعة اللحم وسـارت يدها ذهاباً وإياباً فوقها حتى ذاب ثلجها، أرقدت رأسه فوق الوسـادة، العينان الجاحظتان نحو المجهول بثت بداخلها الخوف الذي بلغ حد الرعب، خشـت أن تثقب نظرتهما سقف الغرفة، وينظر سـاكن الغرفة العلوية المأساة التي تدور رحاها في الغرفة التي أسـفله، فكرت أن تسحب يدها فوق عينيه وتغلق النظرات التي داعبت خوفها وأرجفته، سـحبت الملاءة البيضاء فوق جسـده وودت لو أكملت مسيرتها حتى الرأس .

سـألت نفسها بصوت لا يسـمع وقد تلاعب الخوف بأحرف الكلمات فخرجت مرتعشـة أكثر من ارتعاشة جسده عن سبب ثورته وإلى من كان يتحدث، ومن الذي كان يتلصص عليهما

من داخل المرآة واضطـــر إلى قذفه بزجاجة العطر المفضل إليه، تذكـــرت زجاجة العطر الـــتي حطمت المـــرآة وتحطمت معها فامتلأت الغرفة بشـــذى حديقة للورود حتى حسبت أنها تسبح في بحـــيرة من الإثارة، عنوة قفز إلى ذهنها ســـؤال قد يكون من حقها لكن اســـتغربت توقيته، هل هذا الأريج الذي يعشقه غير كاف لأن يثير فيه حمية الحياة فيقفز كبطل مغوار ويقتحم بـــاب أنوثتها ويمتص الطفل ثدييها حتى التخمة ؟!، حلقت في ذهنها الأماني الضائعة وهزت جسدها الذي نحتته يد الجمال رغبة طال انتظارها، انتظرت إجابة عن ســـؤالها الذي لم يخرج عـــن حدود أذنها، قـــد تريح المرجل المتقـــد بداخلها من الرأس إلى القدمـــين ويكاد أن ينفجر، خُيل إليها أنها نطقت بســـؤالها بصوت عال لكنها لم تستمع إجابة، الوليد صعبت عليه الكلمات كصعوبة امتصـــاص الثديين، أدار وجهـــه وكأنه يرجوها أن تعيد الســـؤال على ظهره فقد يجيب، لســـانه يســـتعصي عليه النطق لكن لســـان ظهره قد يستجيب ويريحه ويريحها، لسانه لا يســـتطيع البوح بكلمات يمكن أن تتهم عقله بالجنون، وقد تفهم هذه الكلمات علـــى أنها نوع من الغش كالغش التجاري الذي تُغش به الســـلع، وهو يريـــد أن يغش ويلقي بتهمة عجزه على الرأس الشـــيطانية التي انتزعت بطولته على أرض الملعب وانتزعت بطولته فوق الفـــراش، تمنى في هذه اللحظة أن يجد فيها بعض النخوة وتُكمل الثالثة بأن تنتزع روحه عن جســـده،

لكنها جبانة تنتزع عنه الحياة بوسائل دنيئة ورخيصة، هذه لعبة الشـــيطان منذ الأزل، يحاول أن ينتزع من دنيا الإنسان على قدر ما يستطيع حتى يفقده ثقته في ربه، كلمة «لماذا» التي يسأل بها الإنســـان ربه عند حدوث مكروه له هي محطة الوصول بالنسبة للشـــيطان، بعدها يدخل إلى رحابه وينقله كما يشاء من شك إلى شك حتى يصبح الإنسان إلعوبة في يده، هل سيدفعه اليأس أن ينظر إلى الســـماء ويسأل «لماذا» .

كمطرقة هوى سؤالها الذي تجرأ وخرج بصوت مرتفع، من الذي حاولت أن تقتله داخل المرآة أو على الأقل أن تصيبه، أخطأت ولم تصب هدفك؛ لأن المرآة لم تـــذرف قطرة من الدماء تقول أن ســـاكنها أُصيب أو حتى جُرح، استدار وجهه نحوها، نبضات عقله تصـــارع بعضها، هل يخبرها بمأســـاته وليكن ما يكون؟

ضحك الطبيب النفسي قائلاً :

- انهض يا رجل، صحتك النفسية أفضل مني !!!

قال وبعض الشك يشوب كلماته :

- أَشعر بغير ما تقول يا دكتور ؟!

أجاب الطبيب مقهقهاً :

- هل تريد أن تشكك في قدراتي المهنية ؟!

أجاب مروان الشرنوبي وفوق شفتيه ابتسامة يصعب تفسيرها :

- العفـــو يا دكتور، فقط الحيرة هي التي طرحت ســـؤالها، الطبيب العضـــوي في الخارج أكد أنه لا توجد مشـــاكل من الناحية العضوية كرجل، وأنت تؤكد لي الآن أنني لا أحمل أي مشاكل من الناحية النفســـية، وعقلي يسأل ويلح عن أسباب هزيمتي على الأقـــل أمام مرمى الفراش .

قطّب الطبيب جبهته قبل أن يجيب قائلاً :

- حالتك ليست غريبة أو شاذة، كثيرون كانت لهم نفس حالتك على الأقل من ناحية العلاقة الزوجية في أول أيام الزواج، ثم انتهت مع مرور الوقت وأصبحوا فرساناً في هذا الميدان، والتفسير الطبي بأن الإنسان يمر أحياناً بحالة نفسية مؤقتة أي ليس لها جذور، وستسألني عن السبب وسأجيبك : قد لا تكون هناك أي أسباب وكما حلت فجأة كضيف ثقيل ترحل فجأة غير مأسوف عليها، أو أحياناً يكون السبب أتفه من أن يعلق بالذاكرة فلا يكون له التأثير الاستمراري، ومع الوقت يذوب مع التفاعلات اليومية وينتهي إلى لا شيء يمكن أن يؤثر على الحياة .

قال مروان وقد فُتحت نافذة الأمل على مصراعيها أمام وجه الذي غضنته الأحزان :

- بماذا تنصح يا دكتور ؟

قال الطبيب وهو يربت فوق كتفه مشجعاً :

- لا شيء، كن كما كنت قبل أن تمر بهذه التجربة، اندمج مع المجتمع وكأن لا شيء حدث وأعتقد أن زوجتك ستساعدك على على تخطي هذه المرحلة بعد ما سمعته منك بأنها لا تدخر جهداً للتسرية عنك .

عودة إلى الخلف وتلك الليلة التي خرج فيها مروان عن شعوره وحطم المرآة في الفندق الذي كان يقضيان به شهر العسل أثناء رحلتهما إلى أوروبا، هدأ بعدها واستكانت رأسه فوق فخذ زوجته، وأمام سؤالها المباشر عن سبب ثورته وزجاجة العطر التي قذفها وطارت في الهواء كطلقة مدفع تصيب المرآة وتحطمها، وما فاه به من كلمات خارجة عن الألفاظ المهذبة، رغم لسانه العفيف نطقها وكأنه يوجهها نحو من يتلصص عليه ويقف لرجولته بالمرصاد حتى لا تقول كلمتها كباقي الرجال، اعترف مروان مضطراً وقد خرج الأمر تماماً عن سيطرته بعد أن قرأ في عيني سمية الذعر والخوف، فإن كانت تتحمل بسماحة وحب عجزه فبالتأكيد لن تصمت أمام هذا الجنون، اعترف لها عن الرأس الشيطانية ونظرتها المغناطيسية التي تشد كل قواه وتتركه جيفة غارقة في المياه، اعترف بمرارة أن نظرة الرأس الشيطانية هي التي سلبت قدمه الذهبية قوتها وحولتها إلى أضحوكة، فككت قهقهاتها كل عظامه، وأيضاً سجنت رجولته داخل قمقم العجز وأبت أن تطلقها فحولته إلى عاجز وحنظلت أحلى أيام عمره، نظرتها مزقت وظيفته الرجولية التي أنعم به الله على كل الكائنات منذ بدء الخليقة، وظيفة عادية معروفة لكل البشر وجميع المخلوقات، لا تحتاج إلى بطولة وإلا كان من حق الفأر أن يفخر ببطولته، نظرة نكبته نكبة مزدوجة، عامة أمام كل البشر، وخاصة أمامها .

قرر كدفاع عن حق رجولته التي سلبتها النظرة الشيطانية واغتالتها من خلال مرآة التسريحة أن يعترف بماضيه ويفيض في اعترافه دون خجل، حكى لها عن مغامرات طيشه مع نساء الليل والهوى وإطرائهن على رجولته، فاض وكأن هذه الذكريات وسام فخر آن الأوان ليضعه فوق صدره حتى لا ترميه بالشكوك في داخلها، وتتحول كلماتها المشجعة المواسية إلى نوع من الشفقة كالتي كان يلحظها على وجهها عندما أضاعت قدمه الأهداف السهلة في الملعب .

إذا كانت هناك بعض الرؤوس يقال بأنها عاقلة، يجب أن تقدم جائزة العقل الكبرى إلى سمية في تلك اللحظات، أو في تلك الليلة عندما أظهرت وحاولت جاهدة أن تضع على وجهها قناع التظاهر بالاقتناع وأنها صَدقت كلماته دون أدنى شك عن الرأس الشيطانية المتربصة بقدمه وبرجولته، وتقف لهما بالمرصاد لتفشلهما وتجعل منهما أضحوكة . انتهت كلماته أو شكواه أو تظلمه، رأى أن من حقه أن ينال مكافأة عن دفاعه المستميت فأقام رأسه لتصعد وتستند على صدرها الذي فشل في امتصاص حليبه، وكأنها محاولة ليستمع إلى دقات قلبها إن كانت تصدق قصته أم ترى فيها صرعات الجنون، شك في قناع الوجه فلجأ إلى حكم آخر لا يمكنه استخدام أي قناع، الدقات المخادعة تكشف عن نفسها والدقات الصادقة تعلن عن

نفســـها، ويبدو أن سمية امرأة خارقة المشـــاعر، أمسكت بقلبها ووضعته عنوة تحت سيطرتها ليدق دقاته الصادقة التي مسحت وجه مروان بمسحة من الراحة . قالت وقد وضعت على لسانها الحكمة :

- حكايـــة عجيبة ياحبيبي أُصدقها بالفعل لأنني أعرف فيك اتـــزان العقل، أنا لا أعرف كيـــف أو لماذا تهاجمك هذه الرأس الشـــيطانية أو ماغرضها ؟!، لســـت أعرف كيف أزيحها بعيداً عنك لتعود كما كنت؟!، ترى من يستطيع فك هذا الحصار الذي فرضته حولك !! .

عادت رأســـه تتوســـد فخذها ثانية، هدأت وقـــد وجدت من يشاركها متاعبها التي لا يمكن أن تبوح بها لأي إنسان، متاعب من نوع خاص يصعب على أي إنســـان تصديقها، قد ينظر إليها على أنها مزحة والأخطر أن يُظهر بأنه يصدقه ثم يشـــيع عنه الجنون !!، لكن سميـــة زوجته وحبيبته صدقته .

في الحقيقـــة لم تنظر إلى قصته حتى بنظرة عابرة على أنها عاقلة، لكن الحكمة أشـــارت عليها أن تُظهر اقتناعها وتشـــعره بالأمـــان، عبرت ملامح وجهه دون حديث عـــن الارتياح وكأنه أزاح عن طريقه الكابوس الذي يعترض حياته في اليقظة والمنام، فضفض عن كل ما بداخله وباح بســـر مصيبته كطفل يشكو إلى أمه عن لعبته التي تحطمت . الطفل لا يجد الأمان ســـوى

على صدر أمه الســـاهرة على راحته وأن من حقه أن يسألها عن هذا الكابوس الذي أزعجه وأخافه، أحاط خصرها ورأسه لا تزال تتوســـد فخذها وكأنه يطلب جرعة أكبر من الحنان والأمان وسأل بنبرة طفولية :

- هل لديك أي تفســـير لما يحدث ؟! هل لديك ما أُبعد به هذه الرأس الشيطانية الملعونة التي تحاول أن تقتل كل حياتي وتتركني جثة بلا روح .

داهمتها شـــفقة حقيقية كادت أن تطلق الدموع السجينة، وضعـــت يدها فوق جبهته تلقائياً وقـــد راودتها فكرة حمة غزت رأســـه لكنها فوجئت بقطعة ثلجية ارتعشـــت لها يدها، حاولت أن تستدعي حكمة سيدنا ســـليمان لينطق لسانها بما لا يجرح مشـــاعره ويزيد من ألامه، أتت الحكمة كمعجزة غير متوقعة لتضع الإجابة كســـؤال يشاركه محنته :

- دعك من التفسير لهذا الكابوس المزعج ودعنا نفكر كيف نبعده عنك وعني ونتخلص من شره !!

أجاب وكأنه يستنجد :

- لقـــد عجزت وتجمد عقلـــى وجمدت معـــه كل الأفكار، أصبحت عاجزاً حتى عن سؤال نفسي هل أنا مروان الشربيني أم تبدلت لشخص آخر، أرجوك أن تفكري أنت، أنا على استعداد أن

أتقبل أي فكرة منـــك تفتح أو حتى توارب باب الأمل .

ازدادت الشـــفقة داخلهـــا وهي تســـتمع إلى صيحات الطفل الجائع وحاولت أن تســـتدعي المزيد من حكمة ســـيدنا سليمان وأجابت :

- اسمـــع يا مـــروان، أنت تعلم كم أحبـــك، وأنا أعلم كم تحبـــني وتثق بي، هذه الثقة هي الـــتي دفعتك أن تبوح لي بما بحت الذي قد يكون مدعاة للسخرية من أي شخص آخر، أُصدق كل حـــرف مما قلته لأنني أنا أيضاً أثق فيك وفي قدراتك وأن ما تمر به بالفعل مجرد ســـحابة صيف كمـــا يقولون، فدعنا نطرق كل الأبواب، أرجو ألا تدع أي هاجس يوسوس في رأسك لأي اقتراح أطرحه .

قال مروان كغريق يتعلق بقشـــة وقد شعرت بأن ذراعه التي اشـــتدت حول خصرها هي التي تجيب :

- بالتأكيد سأتقبل منك أي اقتراح يا سمية، أنت حبيبتي قبل أن تكون زوجتي، وسأفعل كل ما تشيرين به .

تشجعت قائلة :

- ما رأيك لو عرضنا الموضوع على طبيب نفسي ؟

توقعت ثورته لكنه أجاب بهدوء لم تكن تتوقعه :

- هل تتوقعي أن الطبيب النفسي يستطيع أن يزيح عني هذا الكابوس؟!!

قالت مستمدة كلماتها من نهر الحكمة وقد برق الأمل :

- أنت لست مريضاً، الطبيب ليس وظيفته أن يزيح هذه الرأس الشيطانية، كادت أن تهرب الحكمة وتقول له لأنه لا توجد هذه الرأس الشيطانية في الحقيقة، وأن أوهامه هي التي تصورها له تارة تضعها فوق عارضة المرمى وتارة داخل مرآة التسريحة، كان يمكن أن تكون هذه الكلمات بمثابة النار التي تأكل الثقة، لكنها تداركت سريعاً ومدت يدها تغترف من نهر الحكمة ومع ابتسامة حنونة أكملت وكأن ما تعرضه مجرد فكرة عابرة مرت برأسها، هذا الاقتراح ياحبيبي اقترحته كما قلت كطرق لجميع الأبواب يمكن أن نبدأ به ونحن لن نخسر أي شيء، ويمكننا أن نذهب إلى طبيب ضميره المهني لا يعتليه الغبار ويحتم عليه أن لا يبوح بأسرار العملاء .

تخلى رأسه عن فخذها وجلس قبالتها، أمسك برأسها وقربه من وجهه محدقاً في عينيها وكأنه يثبر غور أفكارها إن كانت صادقة أم أن الشك والاتهام لعبا بهما، وأن ما تقوله مجرد كلمات تحاول أن تزين بها اقتناعها بأنه مريض بمرض لا تعرفه وأن المرض النفسي هو أول الظنون، قرأ ما أعاد الثقة إلى نفسه، أضافت وبسمة رقيقة فوق شفتيها

لتهرب من حصار نظراته وتدفعـــه إلى الموافقة على اقتراحها :

- غداً ستزول هذه الأعراض الوقتية وستصبح مجرد ذكريات للضحك فقط، ولن تســـتطيع هذه الرأس الشيطانية المتطفلة أن تخترق مرآة غرفة نومنا الغالية الثمن .

قال وكان قوله كمطرقة هوت فوق رأسها :

- لقد رأيت هذه الرأس الكريهة فوقها وهي لا تزال في معرض المفروشات !! .

حكمة سيدنا ســـليمان أسعفتها فقالت والشك والخوف قد اتخذا من رأســـها ملعبا كالملعب الذي شاهد انكساره، لكنهما لم يتغلبا على البســـمة الرقيقة فوق شفتيها :

- ضيف ثقيـــل يريد أن يفرض وجـــوده بيننا في كل مكان وسيذهب مع الوقت عندما لا يجد ترحيبا منك ومني (وضعت نفسها في قلب المشكلة معه وكأنها تقول أنهما في قارب واحد)

كان لكلماتها مفعول السحر، أراد أن يعتصر شفتيها ليرطب حلقه الجاف كمـــا كان يفعل في فترة الخطوبة، لكن لم يجد في داخله الحمية التي تزكيها الرغبة فآثر أن يريح رأســـه فوق الصـــدر الذي امتلأ بالحليب، لكن الطفل لا يزال جاهلاً كيف يلتقمه ويشـــبع حرمانه، قال مقتنعاً وصـــراخ الحرمان يعلو بداخله لكنه فضل أن يكتمه:

- أوافق على اقتراحك ولنذهب إلى الطبيب النفسي فربما حديثي معه يأتي بنتيجة .

قالت وهي تضع رأسه فوق الوسادة :

- إذاً فلنعد إلى الوطن سنجد هناك من الأطباء الأكفاء ما يغنينا عن البحث هنا وأعتقد ستكون درجة التفاهم أكبر وأجدى .

تعجب مروان لأن الطبيب النفسي لم يعلق بأي تعليق على الرأس الشيطانية أو يوجد لها أي تفسير أو حتى يوليها بعض الاهتمام وهي سبب المصائب كلها، اعتقاده الراسخ أن المشكلة كلها تكمن في هذا الوجه البشع الذي شل كل قدراته وقتل مستقبله ووأده في باطن اليأس .

فقد إيمانه بالطبيب وبكل ما قاله وخاصة أنه لم يكتب له أي دواء ولم يصف له أي وصفة طبية، كاد أن ينفجر في سمية بعد انصرافهما من عيادة الطبيب الشهير، لكنه تذكر قولها بأنهما يجب أن يطرقا أي باب قد يكون به بعض الأمل، لم تُشعره بأن عيادة الطبيب النفسي هي الباب الوحيد ولا يوجد باب غيرها، النظريات العلمية التي درستها وثقافتها الواسعة تستبعد تماماً أن تأخذ حكايته عن الرأس الشيطانية كحقيقة وأنها لا يمكن أن تخرج خارج عالم الخرافات، الأمر لم يكن سهلاً بالنسبة إلى عقلها، بعض الظنون طافت برأسها في زيارات قصيرة تناوشها

بـــأن مروان يختلـــق قصة يحاول بها أن يدافـــع بها عن عجزه، كثيراً ما تســـأل نفسها من باب الســـؤال الذي ينتظر الإجابة عن فشله المزدوج وكل فشـــل منهما يبتعد عن الآخر تماماً في أسلوبه، ســـرعان ما تتغلب علي أفكارها وترجع الأمر إلى مرض نفســـي يحتاج إلى طبيب لكن ما قاله الطبيب لم يرح عقلها أو فضولها حتى ولو قليلاً أو من باب الأمل الزائف، كانت تنتظر بعض التفسير لهذا الهوس أو حتى مجرد دواء يمكن أن يعيد إلى مروان بعض الثقة في قدراته .

وضعت الطبيب النفســـي إلى جانب الطبيب العضوي الذي رأى مروان بالخارج وقال له أن ذكورته لا تشـــوبها أي شـــائبة عندما نجـــح في كل الاختبارات الطبية .

طار تشـــخيصه في أول تجربة عملية ولم تفلح أن تضع فوق وجههـــا الرضا والامتنان مثل بطلة الفيلم الذي شـــاهدته مع مروان عندما كانا في رحلة شـــهر العســـل، وهـــا هو الطبيب النفســـي يعيد نفس الكلمات بأنه لا توجد به أي علة نفسية .

احتار رأس مروان أيضاً في فهم كلمات الطبيب النفسي بأن عليـــه أن يكون كما كان، اختلـــط على فهمه التفريق بين ما كان عليه وما هو عليه الآن، في قرارة نفســـه لا يرى أي فرق . فشـــلت محاولته بعد أن عاد من عيادة الطبيب النفسي والأمل يـــراوده في أن يُنهي عذرية سمية بالرغم مـــن أنه أخذ يردد في

نفسه طوال المحاولة .. أنا مروان الشرنوبي .. أنا كما كنت ولم أتغير، أنا مروان الشرنوبي.. أنا كما كنت ولم أتغير، راودته رغبة بعد أن أنهكته المحاولة وأغرقه عرقه في لجة اليأس وتركت فوق ملامح سمية عصبية لم تفصح عنها أن يذهب إلى الطبيب ويبصق في وجهه، يقول له لقد حاولت أن أكون كما كنت ولم تأت نصيحتك سوى بفشل جديد، نفس ما جال بخاطره عندما كان في رحلة شهر العسل أن يذهب إلى الطبيب الذي أثنى على رجولته، لكن مديحه لم يكن سوى وهم تبخر عند أول تجربة فوق الفراش .

لاعبت الأفكار رأس سمية، اختلطت الأمور بين الحقيقة والخيال، هل بالفعل توجد رأس شيطانية هي التي تحاول أن تقضي على مستقبل زوجها الكروي ومستقبل حياته الزوجية، لكن من أين تأتي، لماذا مروان بالذات ؟!، هل بالفعل يوجد ما يعتقد به في القرى والنجوع وفكر الجهل بأن هناك من يستطيع بأن يعمل السحر ويوقف رجولة الرجل كوسيلة للانتقام لأي سبب من الأسباب، لكن بفرض أن مروان بالفعل وقع تحت هذا السحر كرجل فما شأن الملعب وقد بدأ فشله الكروي قبل فشله داخل غرفة النوم، ما يقال في هذه الخرافات أن السحر يكون كحجاب أو شيء ما يوضع له في الطعام أو الشراب ولم تسمع أبداً عن رأس شيطانية ونظراتها التي تسلب الإرادة والقوة وتترك

الواقع تحت تأثيره كمشـــلول يحاول الوقوف وفي كل محاولة يعـــود وينكفيء على وجهه، الأطباء قـــرروا أنه لا يعاني من أي أمراض عضوية أو نفسية، لمن تذهب ؟؟، هل زمن المعجزات انتهى بالفعل؟!، هل ســـتدفع بها الحيرة إلى مستنقعات الجهل؟!، هل ســـيدخلها اليأس إلى أوكار الدجـــل ؟!، لا أحد يعرف بمصيبة زوجها ســـواها، الابتســـامة الزائفة لا تفارق وجهها والجميع يظنون انها ابتسامة السعادة التي تدثرها من رأسها إلى أخمص قدميهـــا، يذهب فكرها المتعب إلى القريـــب العاجل، قد يمكنها أن تخفي عن الجميع عجز زوجها عن اثبات رجولته وبالنســـبة للإنجاب يمكن أن تكون الحجة عدم العجلة حتى يأخذون حقهم في المتعـــة قبل أن يأتى الأطفـــال بهمومهم، لكن بماذا يمكن أن يبرر عجز الملعب، هل يمكن لأحد أن يهبط من قمة البطولة إلى الفشـــل المطلق بين يوم وليلة وخاصة في عالم الكرة والملاعب؟!، ولـــو قرر الاعتزال من المؤكد أن حالته ستســـوء أكثر وأكثر وهو يرى نجمه يهبط من السماء إلى الأرض وتذهب الشهرة إلى عالم النسيان .

ضاقت الدنيا أمام عينيها وأصبحـــت كثقب أبرة، تذكرت حكاية مروان عن رالرأس الشـــيطانية والمرمى الذي يتحول إلى ثقب إبرة يعجز أن يرســـل من خلاله الكرات لتســـكن جوفه أو تخترق شـــباكه كما فعل كثيراً، انتفضت وارتعش جسدها،

أطبقت جفنيهـــا محاولة النعاس وفكرة أن الرأس الشـــيطانية يمكن أن تظهر لها وتهاجمها بقســـوة .

فتحت عينيهـــا وألقت بنظرة خاطفة على وجه مروان، ظنت أنه اســـتكان للنعاس، لكنه لم يكن ســـوى نعاس كاذب، الأفكار تتـــوارد على رأســـه فكرة وراء فكرة، كيـــف يقضي على الرأس الشـــيطانية، بل كيف يصادقه وتكـــون بينهما هدنة !!، كيف يمكـــن أن يصل إلى صداقة الوهم الذي يظهر ويختفي ســـريعاً وكأنه يطمئن على أن فريسته لم تذهب بعيداً عن أنيابه، فكرة واحدة هي التي نجحت أن تســـيطر تماماً على فكره بعد أن فشل الأطبـــاء في علاجه، قرر أن يخوضها، الأمل الوحيد الذي يمكن أن يعيده إلى ما كان عليه، الأمل الوحيد الذي يعيد إليه اســـم مروان الشـــربيني ويمحو من داخله مرارة الإحســـاس بأن هذا الاسم وشهرته قد غادراه إلى الأبد وأن يعيد إلى داخله الاحساس بأنه ككل الرجال.

- نعم أطلب المهادنة، بل أطمع في صداقتك، مُرني بما تشاء وسأكون تحت أمرك دائماً، فقط أرجوك عُد بي إلى مروان الشرنوبي الذي كانت قدمه تثير الرعب في أي فريق منافس ويُعمل لها ألف حساب، قدمه كانت تهز شباك أي مرمى بل وتمزق بكارتها، أرجوك كن رحيماً، أريد أن أكون رجلاً ككل الرجال، شهر العسل أمضيته كأخ لزوجتي، هذا الشهر الذي ينتظره البشر في كل مكان، لقد مضى علينا أنا وزوجتي « سمية « بالأحزان، كرهت الشهور بسببه ونفسي عافت العسل، غرفة النوم أفكر فيها كسجن وقضبان، الفراش تحول إلى أرض لا تنبت سوى الأشواك تدمي كل خلية في جسدي، كل صباح أتخيل أنني سأنهض وأجد الفراش غارقاً في الدماء، ليست دماء بكارة سمية وأنا أرقد بجانبها مشلول الرجولة، دمائي أنا والأشواك تتلذذ بغرس سنونها المدببة في كل جهة من جسدي وأنا أتقلب عليها وأكاد أصرخ ليسمع العالم كله صوت عذابي، أكتم الألم

في داخلي أشـــعر به وتؤلمني طعناته أكثر من الأشواك، زوجتي « سمية « لا يصرخ فمها لكن عندما أضع رأسي فوق صدرها أسمع صوت صرخات الحرمان تخـــترق أُذني، صرخات أنوثتها التي لم أســـتطع أن أُشفي غليلها، نعم أريد أن أصادقك، ارحمني ودعنا نكتب عقد الصداقة الآن، أملي شـــروطك كما تشاء، سألتزم بها وسأكون لك الصديق الوفي .

- حســـنا، لن نكتب أي عقود، الكلمة تكفي، لا تنسى أنك في قبضتي وعقابي سيكون أشد مما تتخيل، يفوق ما تقاسي منه الآن أضعافاً مضاعفة، أذهب الآن إلى منزلك، ستجد غرفة النوم قد حطمت قضبانها وتحولت إلى حديقة غناء، الفراش الشـــائك أصبح في نعومة الزبد، والعســـل الذي عافته نفســـك ستجده أشهى الأطباق، أذهب وقل لزوجتك أن رجولتك كانت تائهة وعادت زائدة ولم تنقص، لا تنظر إلى مرآة التســـريحة لأنك لن تجدني فوقها أو داخلها، ليس كما قالت زوجتك سمية لتمزح معك بأنني لن أســـتطيع أن أخترقها ؛ لأنها غالية الثمن، لكن لأنني سأتركك تنعم في هدوء وتعوض شهر العسل الضائع . اذهب إلى الملعب واكشف عن قدمك، اعتذر لجمهورك وقل لهم أنها أخفقت وهـــي الذهبية فقررت أن تغير معدنها وتحولها إلى ماسية، قل للفرق المنافسة الويل لمن ظن أن مروان الشرنوبي قد خلـــع لباس الملعب وارتدى الجلباب وتحول إلى راعٍ للأغنام . قل

للمرمي، أي مرمى، ابكي على عذريتك التي ستمزقها كرات فاقت سرعتها وقوتها الصواريخ التي تتباهى بها الدول . هيا اذهب الآن وعلق راية الانتصار فوق فراشك .

فاق مروان على ضحكات « العسيلي »، وصوته المجلجل :

- لم أكن أعلم أنك ستعود بعد هذه الغيبة ورأسك خفيفة كريشة طائر!!، بضعة أنفاس تطير بها من مكان إلى آخر!!، هل عِدة أحجار توهج فوقها الفحم وفاحت منها رائحة الحشيش الذكية يمكن أن تلعب برأسك بهذه السرعة ؟!، آه من هذا الساحر الجميل، البعض يظن أن الحشيش ذهبت أيامه ويهجره إلى الأصناف الأخرى، يتعاطون السموم بالشم والابتلاع وتدفعهم إلى بؤرة الإدمان، هل تعلم يا مروان ؟، أعتقد اعتقاداً راسخاً بأن الأجيال الماضية التي أبدعت، الفضل في إبداعها يعود إلى أنفاس الحشيش التي صاغت الأفكار داخل عقولهم كمنظومة موسيقية لأشهر الموسيقيين أمثال «باخ، موزارت، بيتهوفن»، فخرجت هذه الأفكار لتعيش كمنارة للثقافة والفنون على مر التاريخ، أحياناً وعندما تخف رأسي وأشعر بها كريشة طائرة في السماء الصافية بعد هذه الأنفاس الرائعة، تأتيني الأفكار بأن نجيب محفوظ لم يكن سيكتب جملة واحدة من الروائع التي كتبها ولا سيدة الغناء العربي ستشدوا ولو بغنوة واحدة

بصوتها الذي رقصت له النجوم إن لم تكن الأنفاس مدعمة لهما، ليس هما فقط، بل كل من أبدع في كل المجالات، أنظر إلى هذه الأجيال التي حولت كل الفنون إلى مسخ، من المؤكد أنهم لم يجربوا هذه الأنفاس وتعاطوا السموم التي يتعاطونها هذه الأيام، مجرد خيالات ياصاحبي وأنا أجلس في مكاني هذا وأظن في نفسي بأنني أصبحت ملكاً لا ينقصه سوى تاج الملوكية، نعم يا صديقي كم كنت تهزأ بي وأنا أقول لك بأن بعض أنفاس الحشيش يمكن أن تجعل منك ملك الملاعب، وعندما استمعت لنصيحتي أصبحت لاعباً تهتف باسمه له الجماهير، لست أعلم ما الذي حدث عقب آخر مرة ؟!، كيف أطبقت عليك الهزيمة من كل جهة حتى أن الجمهور ظن فيك كل الظنون ؟!، أعياني الفكر ولم أصل لنتيجة تفسر ما حدث !!، الصنف لم يتغير وعدد الأحجار التي تضبط عليها مزاجك لم يتغير، فكرت أنه قد يكون العيب فيك لأنك لم تقدم الشكر اللازم لنعمة الحشيش فتحولت إلى نقمة .. هاهاها .

ثرثرة «العسيلي» لم تتوقف، ثرثرة المسطول الذي يظن أن الأنفاس التي تُشد من الشيشة المطعمة بالكيف قادرة أن تلون العالم كله بلون وردي، وأن ما يرزح فيه العالم الآن من غباء هو نتيجة لعدم اكتشافه لسحر هذه الأنفاس فبلغ الغباء مبلغاً حكم عليه بأن يتربع فوق قمة الكرة الأرضية ويرى السواد

محيطـــاً بها من كل جانب، ينظر إلى الكواكب الأخرى بنظرة الشـــهوة للقفز فوقها وفكره الفاســـد يزين له أن السطو عليها هو الحل لكل مشـــاكله التي ولدت من الغباء، غباء حَوَلَ العالم كله إلى ميدان للحروب وقتل وأحقاد وضغائن وتشوهات خلقية ونفسية، لو أن الجميع شدوا الأنفاس الراقية من شيشة التحليق في سماء الإبداع لتحولت الكرة الأرضية إلى حديقة غنّاء يتعانق فيهـــا الجميع وما انكشـــفت عورات السياســـة ولا دعارة الفتن الطائفيـــة ولا مات الفقير جوعاً ولا الغني نهماً .

كلمات «العسيلي» وإن كانت كلمات مسطولة لكنها تحمل الحقيقة، الحقيقة البائسة التي أصابت العالم، والتي تجعل فكرة سطل الحكومات فكرة محتمة لو أُخذ بها يمكن أن تعيش الشعوب في ســـلام وأصلحت من غباء الساسة . «العسيلي» ظن في عيني مروان المحملقة في لا شـــيء أنها الانبهار بكلماته، قرر أن يزيد من مواهبه الإبداعية في الخطابة، لكن مروان كسر بريق الأمل داخل عينيه عندما هب واقفاً وهو يردد وكأنه يحدث شـــخصاً آخراً .. دعني أذهب الآن .. دعني أذهب الآن، قهقه «العســـيلي» صائحاً : من المؤكد أنك ستذهب للإبداع مثل بيتهوفن.

لم تكن المرة الأولى التي يجالس فيها مروان «العسيلي» والشيشة وأنفاسها التي كانت تنقله إلى عالم غير العالم، عالم من البللور

الشـــفاف، كل ما فيه من البللور . «العســـيلي» كان يمازحه قائلاً : أن قدمه اليمنى لا تنتعش إلا مع أنفاس الحشـــيش، وأن القذائف التي يســـددها نحو المرمى المنافـــس الفضل فيها يعود إلى انتعـــاش قدمه، تكررت هذه اللقـــاءات، أطلق عليها «مروان» الجرعات المنعشـــة، لم يكن قد تعرف علـــى «سمية» بعد وحتى بعد أن أصبحت خطيبته لم يطلعها على ســـرها، آمنَ بأن هذه الجلسات هي السر في تألقه في الملعب وأنه إذا أفشى سرها ستفقد تأثيرها وتصبح كالحظ الذي تحسده العيون ويضيع ولا تنفع بعدهـــا كل تعاويذ العالم لإرجاعه، لم يعط ســـره حتى لأقرب النـــاس إليه أو إلى أي أحد من أصدقاء الملعب، يردد دائماً «داري على شمعتك تقيد»، لم يصادق ســـوى «العسيلي» وشيشته، ذات ليلة حلقت رأســـه مع الدخان الأزرق الذي كان يتماوج داخل الغرفة والذي على حـــد قوله ينعش حوائطها فتتمايل راقصة، تبلورت داخل رأسه فكرة مسطولة أن قدمه لو استنشقت من هذا الدخان الأزرق ستزداد مهارتها، خلع الحذاء ورفع قدمه اليمنى لأعلى لتأخذ حقها من الأنفاس الزرقاء التي تتلوى كالثعبان والـــتي كان يطلق عليها الأنفاس المبروكـــة التي تحول قدمه إلى مايســـترو يتفنن في كيفية إرسال الكرات إلى مرمى الفريق المنافس، أعاد الجورب والحذاء سريعاً حتى تختمر الأنفاس مع القدم وتنتعش في المباراة التالية وهو يردد فلتعطينا بركتك يا

إله السلطنة، ليلتها لم يعرف إن كان ما رآه بعد ذلك حقيقة أم هو هلوسة المساطيل، وسط الدخان الأزرق شاهدها، رأس شيطانية نظراتها تشبه حجر الشيشة عندما يتجمهر فحمه، سمع ضحكة أثارت الرعب بداخله، سأل «العسيلي» إن كان سمعها أيضاً، قهقه « العسيلي « حتى كادت أن تتقطع أنفاسه، جذب الشيشة من يده وهو يردد مع قهقهاته، كفى، كفى، أنه شيطان مدرب الفريق يريد أن يقول لك أنه كشف أمر هذه الجلسات العامرة، عاد مروان إلى منزله وقد أفقدته هذه الرأس الشيطانية البهجة التي عاش فيها طوال الأمسية، وجاءت الطامة الكبرى في الملعب والمباراة المهمة التي ينتظرها الجمهور وينتظر الكثير من قدمه ليحقق الفوز على الفريق المنافس، المرة الأولى التي تظهر له الرأس الشيطانية فوق المرمى، نفس الرأس الشيطانية التي شاهدها وسط الدخان الأزرق، لم يبح لأحد بها حتى لنفسه، رفض في داخله أن يصدق ما كان يظنه هلوسة المساطيل، لكن عندما انقلبت هذه الهلوسة إلى حقيقة وحنظلت حياته الكروية والزوجية، وبعد أن فشل الأطباء في إعادة رجولته الضائعة، قرر أن يعود إلى جلسات «العسيلي» ثانية، لعل هذه الرأس الشيطانية تعود ثانية وسط أمواج الدخان الأزرق، وربما استطاع التفاوض معها لترضى عنه، وهذا ما حدث بالفعل وظن «العسيلي» أن حديث مروان مجرد هلوسة مسطول مثل ما قام

به تلك الليلة عندمـــا خلع الحذاء لتنتعش قدمه من نفحات الدخان الأزرق، قال عن الكلمات التي كان يتفوه بها أنها الدليل الأكيد على وصول مـــروان إلى قمة المزاج العالي، لم يظن أبداً أنها محادثة مع رأس شيطانية .

بعدها نهض «مـــروان» دون أن ينطق بكلمة واندفع إلى الباب وكأن ليلة القدر تناديه، توالت قهقهات «العســـيلي» وسلطان الدخـــان الأزرق يطلقها مجلجلة مـــردداً : لقد وصل مروان إلى حـــد الانتعاش وذهب للإبداع . لم يحك له مروان عن مصيبته فوق الفراش، فظن أنه لا يزال يعيش في شـــهر العسل، وانطلق سريعاً إلى الفراش قبل أن تذهب نشوة الأنفاس ليشارك سمية في متعتها، ازدادت القهقهات وعلا صوته مردداً : لقد ذهب بيتهوفن ليعزف أجمل ألحانه .

انطلق «مروان» كطائرة بدون طيار، جرس الباب أنْ وتوجع، وضـــع أصبعه فوقه ولم يرفعه إلا بعـــد أن أتت «سمية» مهرولة لتســـتطلع من هذا المجنون، رآها كوردة تفتحت من فورها، لم تتمكن أن تسأله أين كان، كثرت الأسئلة على لسانها وطاردت بعضهـــا، لكنها لم تتمكن أن تنطق بها وهو يحملها ويقفز قفزاً نحو الفـــراش وكأنها كرة والمرمى انفـــرج بكامله أمام عينيه ولم يعد يرى فيـــه ثقب الأبرة، ألقاها فوق الفراش، كمم فمها

بقبلة لم تستمع بمثلها من قبل، في اللحظات التالية كانت بقعة من الدماء فوق الفراش تعلن أن «سمية» تركت عذريتها للأبد وأصبحت السيدة «سمية»، لم تتوقف عن تقبيل وجهه وقد اكتسى وجهها بملامح الامتنان والرضا كبطلة الفيلم الذي شاهداه ولم يتمكن مروان وقتها أن يضع منهما شيئاً فوق وجهها، قالت في داخلها أن الرجولة ثأرت لكرامتها، وأن «مروان» استطاع أن يعيد لها قوتها التي فقدها وهو يعيش في أوهام الرأس الشيطانية، فترة عصيبة لكنها انتهت على خير وغداً يعود إلى الملاعب وتتألق شهرته، الأحلام الوردية ملأت رأسها وكل ما حولها بباقات من الزهور تحمل أريج العطور وأجمل الألوان والأشكال، لم تهنأ كثيراً بفرحة عوضت أنوثتها عن حرمان بدأ مع اللحظة الأولى من ليلة عرسها، استمعت إلى مروان وكأنها تستمع إلى صوت تداخلت نبراته لتشكل كلمات غبية لا تُفهم ولا تُهضم :

- أعتقد أنه لم تصبح بيننا أسرار وصارحتك بكل مرارة نفسي التي خبأتها عنك لبعض الوقت وكنت لا أجرؤ لمجرد التنويه عنها حتى لا تظني بي الجنون .

قالت « سمية » وابتسامة تنير وجهها الذي اكتست ملامحه بالرضا والامتنان عقب وجبة دسمة من الحب :

- أرجوك، لا تعود إلى الماضي، لقد نسيته تماماً، ولن أتذكر سوى ليلة الأمس، وقد بدأنا شهر العسل الحقيقي .

عادت ملامح وجهه كنسخة كربونية من تلك الليلة التي اعترف لها عن الرأس الشيطانية قائلاً :

- لكن يوجد ما يجب أن أصارحك به .

قالت وقد توجست وبدأت ملامح الرضا والامتنان تنكمش :

- حدثني بكل ما بداخلك يا حبيبي، الصراحة يجب أن تكون طرفاً ثالثاً في حياتنا .

جاهد عقله ولسانه حتى لا تخرج الكلمات كصدمة جديدة وقال :

- لقد عقدت هدنة وصداقة معها !! .

- مع من يا مروان ؟ .

أجاب وقد اقتربت أنفاسه من أذنها وكأنه يذيع سراً ويخشى أن يوجد بالغرفة من يتلصص على كلماته .

- مع الرأس الشيطانية !! .

قالت كمن فقد صوابه أو فقده بالفعل وقد ارتكزت على مرفقيها فوق الفراش فبدا الصدر الممتليء شهياً أمام عيني الطفل وقد تعلم كيف يلتقمه :

- أرجـــوك .. أرجوك .. اســـتيقظ يا مـــروان ولا تدع هذا الكابـــوس يتغلب عليـــك ثانية .

قال وهو يجذبها إليه وقد ثارت شهيته لوجبة جديدة :

- لا تخشـــي العودة إلى حرمان الفـــترة الماضية، لقد أبرمت معها اتفاقاً أو سِمِهِ عقداً، من بند واحداً «ســـاعدني وأساعدك»

قالت بصوت يشبه الهمس وهي تحاول أن تغوص معه للعمق وكأنها تخشى أن تفقد متعة الرضا والامتنان بعد أن ذاقتها :

- وأي مساعدة تلك التي يطلبها منك ؟!

لم يجب مروان وسعادة العالم كله تجمعت في هذه اللحظات وتأوهات المتعة التي تطلقها كل خلية في جسدها علت واخترقت النافذة، وكأنها تعلن للجميع عن رعشاتها المتتالية التي أفقدتها السيطرة على صيحات زادت من نشوة مروان، فأرسل نظرة نحو المرآة وكأنه يبحث عن الرأس الشيطانية ليقدم لها عميق شكره وتقديره، وأنه سيلتزم بعقده معه مهما كانت شروطه .

تاهت «سمية» بين جسدها وعقلها، الجسد الذي حُرم من متعة مـــن حقه منذ زواجها الآن راض كل الرضى عن الواقع المذهل الذي أعاد إلى «مروان» رجولة فوق الرجولة، عقلها يرفض تماماً قصته عن العقد الذي أُبرم بينه وبين الرأس الشيطانية، أفزعها

«مروان» بحديث لا يدخل عقل نملة، رأس شـــيطانية تحرمه من رجولته ثم تعيدها إليه كأقوى ما تكون الرجولة، شيء لا يمكن أن يوصف سوى بالجنون، أي جنون، «مروان» بعيداً عن كلماته عن الرأس الشيطانية أعقل العقول، تحدق في وجهه عقب كل متعـــة مضاعفة تحصل عليها بعد أن عـــادت إليه رجولته وهو يتحدث عن الرأس الشـــيطانية التي لها كل الفضل في إعادتها إليه بعـــد أن حنظلت أيامه الماضية وترى في قســـماته الجنون، يصـــرخ داخلها بالمرارة، في إحدى المرات أبعدته عنها وطارت نحو الحمام، أغلقت الباب وأفرغت شـــحنة من الدموع لها طعم الماء المـــالح، عادت ولاحظ أن الأحمرار حل محل صفاء العينين، قال وهو يحاول أن يضمها إلى صدره لتلبية نداء رغبة أتت ســـريعاً، أبعدته عنها، نظر وفي عينيه نظرة عتاب قائلاً :

- ماذا حدث ؟! أليس هذا ما تريدنه، أحاول أن أعوضك عن ما أهدرته من حقك في الفترة الماضية، أعوضك عن الحرمان الـــذي كنت أقرأه في عينيك وكل ملامح وجهك وأشـــعر به كخنجر يغوص في قلبي .

قالت وهي تحاول أن تزن كلماتها :

- أكاد لا أستطيع أن أنقل لك فرحتي بعودتك إلى نفسك التي ضاعـــت منك في الفترة الماضية، لكـــن حديثك عن هذه

الـــرأس الشـــيطانية يقلقني، والآن أعترف لـــك صراحة بأنها بالنســـبة لي لم أنظر إليها في أي وقت من الأوقات إلا كوهم، لم أصدق كلمة عنها لكنني كنت أحاول ألا أجرحك بكلمات يمكـــن أن تفكر فيها بطريقة أخرى وتفقـــدك الثقة في محبتي لـــك، والآن بعد أن تحققت كلماتـــي وأن ما مر بك لا يزيد عن فترة قلـــق قد يكون اجتاح داخلك وهـــو الذي أثر عليك كم يزعجني حديثك عن هذه الأوهام ويثير في داخلي المخاوف بأنك يمكن أن تعود ثانية .

أمســـك برأســـها بين يديه ونظرات من الحب تمسح وجهها برقة وقال :

- لا تخافي يا حبيبتي، لقد كان كابوساً ذهب إلى غير عودة، لقـــد عرفت طريقي الآن، وكم أشـــكر لـــك حنانك وحبك واحتوائـــك لي خلال هذه الفترة .

قالت وفي عينيها رجاء يصل إلى الدموع :

- عدني بأن لا تعود للحديث عن هذه الرأس المقيتة ثانية .

٦

يردد ولا تتوقف شـــفتاه «ضاقت وأحكمـــت حلقاتها فرجت وكنت أظنها لن تُفرج»، يعيدها ويعيدها ويزيد عليها «زاد الفرج وأصبح لا يعد ولا يحصى»، لماذا لا يردد وقدمه ترســـل قذائفها نحو مرمى الفريق المنافس؟!، لم يكن يحلم بهذه السعادة، أربعة أهداف ولم يمض نصف الوقت بعد، كل هذا خلال الشوط الأول، بلغ القمة وقدمه تسدد الهدف الأول بعد دقيقة واحدة من بداية المبـــاراة وغياب عن الملاعب لفترة طالـــت، جمهوره ينتظره على أحر من الجمر عندما أُعلن أنه سيشـــارك فريقه في هذه المباراة، جمهور الفريق المنافس تساءل إن كان سيعود إلى مجده ويفقد حارس المرمى توازنه أمام قذائفه أم سيلازمه سوء الطالع وينهي حياته الكروية، الجميع ينتظرون ما سيقدمه «مروان الشرنوبي» في هذه المباراة بعد غياب طال عن الملاعب، بل ماذا ســـيقدم وقد ترك الملاعب والهزائم تلاحقـــه وأصبح اسمه بعدها مضغة في الأفواه .

وقف في وسط الملعب ويداه تحكمان خاصرته وكأنه يقول ها هو « مروان الشربيني »، عاد وقد تألق نجمه أكثر مما كان، بعد الهدف الثاني قذف فانلته وقفز على السور الذي يفصل الجمهور ليقول « مروان الشرنوبي « عاد إليكم، فكرة ناوشته بعد تسجيله الهدف الرابع من مسافة تبعد عن منتصف الملعب أن يخلع الحذاء ويقبل قدمه اليمنى التي سددت الأهداف الأربعة ويصرخ بأعلى صوته كما قالت له الرأس الشيطانية : لقد غيرت اسم قدمي من القدم الذهبية إلى القدم الماسية وستريكم العجب، كنتم تظنون أن « مروان الشرنوبي « قد ودع الملاعب مبكراً، ها قد عدت إليها كأعظم ما يكون عليه اللاعب، تصفقون وتهتفون لأني سجلت أربعة أهداف ولم يمض نصف الوقت، أدخروا بعض هتافكم للنصف الآخر وللمباريات القادمة، أخشى أن يبح صوتكم ولا تجدون صوتاً تهتفون به، المباريات القادمة ستشهد الملاعب انها لم تنجب مثل «مروان الشرنوبي»، وسيسجل التاريخ أنه زمن «مروان الشربيني».

مهرجان في المدرجات يعلن عن فرحة غامرة لا توصف للجمهور، وفرحة مندمجة بسعادة لا توصف تدغدغ مشاعر زوجته «سمية»، كادت أن تخرجها عن وقارها وتقف لتقبل كل من حولها، دهشة بلغت حد الذهول وهي ترى قدم زوجها «مروان» تثير بلبلة الفريق المنافس، حولت الفريق بأكمله إلى

مجرد دُمي، تخلى الفريق عن خطة اللعب التي وضعها له المدرب واجتمع كله لمحاصـــرة هذه القدم التي نكلت به، تروغ وتنتهي إلى مرمـــاه بقذيفة كالداء الذي ليس لها دواء أو علاج، حارس المرمى كاد أن يعلن الاستســـلام ويترك مرمـــاه ليعتزل الكرة، فجأة هزمت فرحتها فكرة مقلقة داهمت رأســـها كقطار خرج من فوق قضبانه، تســـاءلت بينها وبين نفســـها وكأنها ترتكب جرماً، هل هي الرأس الشيطانية التي اتهمها «مروان» سابقاً بأنها السبب في فشل حياته الكروية وحياته الزوجية، ثم عاد وباح لها وهي في غمرة متعتها بأنها رضيت عنه وسترد إليه الفشل الذي تســـببت له فيه بنجاح يفوق الخيال، الشكوك تناوشها وتقودها إلى شـــبه الإيمان بما قاله لها مروان .

تلك الليلة عاد مـــن الخارج وهو يحمل رجولة فوق رجولته بكل فخر وفرحـــة وكأنها كانت تائهـــة ووجدها في الطريق تنـــادي عليه وترتمي في حضنه وتنزلق إلى داخله، والآن وفي أول عودة للملاعـــب قدمه تصول وتجول وكأنه لا يوجد ســـواها بالملعب، لقد عادت إلى مجد فاق كل مجده السابق فوق البساط الأخضر، هـــل ما فاه به وهي تتمرغ في حضنة في نشـــوة المتعة بأنه عقد هدنة مع الرأس الشيطانية وأن معاهدة وقِعَت بينهما كلمـــات تحمل الحقيقة وتبتعد تماماً عن الوهم أو الخيال ؟!، نفضت رأسها لتُخرِج من داخلها الكرة المحماة بالنيران وتستمتع

بصوت الهتافات المجنونة للجمهور أو بمعنى أدق جمهور «مروان الشرنوبي» لوحده وقد سجلت قدمه انتصاراً خامساً والوقت لا يزال مبكراً على النهاية، وقفت ونسيت أن تجلس ثانية وهي ترفع يديها إلى أعلى وكأنها تبتهل إلى الله ألا يعيد إلى رأسها هذه الفكرة التي أحرقت داخلها وحاولت أن تقضي على فرحتها، لكن السؤال رفض المغادرة وظل يطن داخل أذنيها، أين الحقيقة ؟!، أين الحقيقة في كابوس الأيام الماضية وفشل مروان والواقع الذي تعيشه الآن ويفوق أروع الأحلام .

مروان بعد هذه الليلة التي رمى أمامها بمعاهدة الصلح مع الرأس الشيطانية والتي استدعت دموعها وتوسلها بألا يعيد الحديث في هذا الموضوع ؛ لأنه يخيفها وينتزع الفرحة من داخلها، لم تَرد على طرف لسانه أي كلمة عن هذا الوهم أو الخيال اللعين أو ربما الحقيقة من يدري وهذه المعجزات تتوالى في حياتها، هل هي نوبات من، من، من، من ماذا ؟!!، لا تجد تسمية لها، تحاول ألا تدخل فكرها إلى وهم اسمه الرأس الشيطانية، لكن الواقع بأحداثه يكاد يغلبها، ما هي القوة التي أضاعت قدمه وأضاعت رجولته ؟!، ما هي القوة التي أعادت إليه قدمه بقوة تفوق بكثير ما كانت عليه، ما هي القوة التي أعادت إليه رجولة لولا الحياء لوصفتها وصفاً دقيقاً، لم تكن لها أي تجارب في عالم الجنس قبل الزواج، لكن من الواضح أن نهمه فوق الفراش يقول

أنه فوق المستوى العادي بكثير!!، جلست وقد فاقت على هتافات مازحـــة يهتف بها الجمهور الـــذي كاد أن يفقد صوابه مردداً بصـــوت زاد من دقات قلبها : يا مروان يا بن الشـــرنوبي .. وش «سمية» يا عيني يا عيني، ويبدو أن وش «سمية» أراد أن يرسل تحية إلى الجمهور عندما أنهى مروان انتصاره بضربة جزاء ســـجلت الهدف الســـادس للفريق، تذكر في اللحظات التي كان ينتظر فيها صفارة الحكم ضربة الجزاء التي أضاعها وتسببت في هزيمة فريقه، عاد إلى ذهنه ثقب الأبرة وصرخات داخله كيف سيسجل من خلال ثقب أبرة واليوم دهشته ازدادت عندما كان ينظر إلى المرمى وقد خيل إليه أن جوانبه تتحرك لتزيد المســـاحة أمامه ليسجل أهدافه دون عناء أو تفكير .

كان احتفالاً رائعاً بعد انتهـــاء المباراة وعودتهما إلى المنزل، أراد «مـــروان» ان يحتفل معها في مكانهمـــا المفضل قبل الزواج لكنهـــا قالت بصوت يحمل نغمة لا تخطئها الأذن بأنها تريد أن يحتفلا بهذا الفوز العظيم في منزلهما وكادت أن تضيف بل وفي غرفة النـــوم بالتحديد، لولا أنها قرأت داخل عينيه أن تلميحها وصـــل إلى داخله وأنه هو أيضاً يرحـــب بالاحتفال على الضوء الأحمر، فكرة راودتها، خشـــيت أن تكون بطولته في الملعب سلبت منه بطولته فوق الفراش، اطمأن قلبها وهي تلقي برأســـها فوق صـــدره وقد انتهت مباراة الفراش بفوزهما معاً، أغمضت عينيها

ووجههـــا يعلن عن الرضا والامتنان، لم تعلم لماذا كأمنية أرادت لو أن « مروان » عاد للحديث عن الرأس الشـــيطانية، لكن مروان كان قد ذهب مع سلطان النعاس، رفعت رأسها ونظرت إلى وجهه الـــذي يحمل رضاء العالم كله، ابتســـمت وطبعت قبلة عميقة فوق جبهته، قبلة الأم المشفقة على وليدها، جهد مضاعف بذله «مـــروان» اليوم، جهده في الملعب وجهـــده معها ولم يُقصر في أي منهما، هتافات الجمهور في الملعب تشـــهد على ذلك، وصوتها المبحوح وهي تطلق آهات النشـــوة أيضاً شهد .

عادت برأسها فوق صدره تحدث دقات قلبه وتسألها الحقيقة، لكن سلطان النعاس شدها كما شد مروان قبلها . دقت الساعة دقـــة واحدة بعد منتصف الليل، قفـــز « مروان » قفزة من لدغه ثعبان من نوع الكوبرا على شـــهقات تشبه العويل تحشرجت بها حنجرة «سمية»، وقبل أن يمد يده ليوقد المصباح كانت الصرخة الفزعة قد أتت على باقي أعصابه، شدها إلى حضنه وأحس بها تنتفض كقشة في مهب الريح، حاول أن يعيد إليها سكينتها لكن ارتعاشة جسدها أبت أن تتوقف، أحس بدموع ساخنة تنحدر فوق كتفه العاري، أعاد رأسها فوق الوســـادة وفزع للوجه الشاحب الذي بدا وكأنه فقد كل دماءه، لم يحاول أن يُثقل بســـؤالها عما حدث وصدرها يعلو ويهبط كموجات البحر الثائرة، هدأت قليلاً وقال بصوت مبحوح ببحة الفزع وليس بحة المتعة :

- رأيتها في كابوس، كم هي فظيعة !

سأل وهو يضمها إلى صدره ونظرة الذعر لا تزال تعلن عن خوفها :

- من تلك التي أتتك في الكابوس ؟!

أجابت بصوت هامس يبوح برعبه وشـــفتاها تكادا أن تسكنا أذنه :

- الرأس الشيطانية !!

انتقل رعبها إلى جسده كرعدة تيار كهربائي وسأل بصوت مصعوق :

- وكيف عرفت أنها الرأس الشيطانية ؟!

أجابت وشفتاها لا تزالا في محاولة الدخول إلى أذنه :

- عرفتهـــا من وصفك لها، ألا تذكـــر عندما وصفتها لي ومازحتك بقولي أنك من المؤكد كنت تستمع إلى القصص المرعبـــة وأنت صغير وظلت في ذاكرتـــك تحلم بها حتى تعيد إليك أيام الطفولة .

انتقلت شـــفتاه لتسكن أذنها وسأل بصوت أخفت من صوتها كالمضطر الذي يسأل عن المحظور :

- هل يمكن أن تصفيها لي ؟!

انتزعت نفســـها من بين ذراعيه وألقت برأســـها فوق الوسادة جاذبة الغطاء بعنف فوق وجهها وكأنها تريد أن تهرب إلى آخر العالم صائحة :

- لا، لا، أرجوك، كفى، كفى، لا أريد أن أصدق أن ما تقوله لي عنها أنه حقيقي وأن هذه الرأس الكريهة موجودة في حياتك بالفعل .

في هذه اللحظة وقعت نظرة منه نحو مرآة التســـريحة، رآها كما كانت تتراءى له من قبل، لكن الفرق أن هذه المرة كانت في شبه ابتسامة، ابتسامة زادت من بشاعتها، بدون أن يدري وفي حركة تلقائية رفع ذراعيه لأعلى وهو لا يعلم إن كانت حركة استسلامية أم ليعلن عن أســـفه عما بدر من من زوجته وأنه لا يزال على عهده معها، ثارت في داخله المخاوف وكادت أن تقتله، هل ســـتعاقبه أو بمعنى أدق تعاقب زوجته ولو مؤقتاً وتنزع عنه رجولته كتأديب مزدوج لهما حتى لا يخوضا في سيرتها وخاصة أن سميـــة وصفتها بالكريهة . اندس تحت الغطاء وكمغتصب جذب سمية بشـــدة وتنفس الصعداء وهو يسمع صوتها المبحوح يطلق آهات المتعة وقد نســـت أو تناســـت كل شيء عن الرأس الكريهة .

ذاب في عرقـــه، عرق الخوف وليس عـــرق المجهود فالمباراة لا تزال في بدايتها، لم يدر إن كانت ســـاقاه قادرتان على حمله أم ستخوران ويخور معهما، الحول أصاب عينيه وهو ينظر تارة نحو المدرجات التي تغطت بكتلة بشرية متلاحمة من الجمهور الذي حضر ليشـــجع فريق بلده في مباراة أمـــام أحد الفرق الأجنبية الذائعة الصيت، وتارة نحو مرمى الفريق الأجنبي، حاولت عيناه أن تبحثا عن زوجته «سميـــة» في مقصورة الدرجة الأولى فربما نظـــرة منها تُدخل الدفء إلى قلبه المرتعش، وربما لســـؤال أراد أن يوجهـــه إليها ويقرأ إجابته عن بعد إن كانت ترى ما يراه أم أن الرؤيا كانت قاصرة عليه وحده، هل ترى الرأس الشـــيطانية اللعينة التي تربعت فـــوق عارضة مرمى الفريق المنافس، أم أنها لا تراها ســـوى في الأحلام تأتي إليها ككابوس كما حدث منذ فترة .

هذه الرأس اللعينة تعرف كيف تختار الوقت المناسب، المباراة الأولى التي يشارك فيها بعد توقفه لفترة عقب المباراة التي أحرز فيها ستة أهداف كإعجاز كروي، المدرب رأى أن يحتفظ به خوفاً على قدمه لهذه المباراة المهمة مع الفريق الأجنبي، أراد المدرب أن يدخره لهذا اليوم الذي تنتظره الجماهير بل البلد كلها، الفرق كبير بين أن تكون المباراة بين فريقين متنافسين من داخل البلد وأن تكون المباراة أمام إحدى الفرق الأجنبية، الجمهور كله يصبح كتلة واحدة تحت مظلة علم بلده، ينتظر الكثير من قدم «مروان الشرنوبي»، يحلم بنهاية المباراة ومرمى الفريق الأجنبي يتجشأ وقد امتلأت كرشه بالأهداف، كما يتجشأ «مروان الشرنوبي» الخوف في هذه اللحظات وقد امتلأت كل خلايا جسده بالتوتر والرعب، مصيبة حطت فوق رأسه دون سابق إنذار .

فزعت عيناه لمرأى الرأس الشيطانية فوق عارضة المرمى، نعم تُظهر شبه ابتسامة، نعم هي نفس الابتسامة التي رآها في آخر مرة فوق مرآة التسريحة ولم تؤذه وقتها لكن من يضمن !!، « عندما رأتها «سمية» من خلال الكابوس أفزعتها ونعتت ابتسامتها بأنها كريهة، وقتها أصابه الرعب وخشى أن تعاقبه هو شخصياً لتطاول زوجته، سارع إلى اختبار رجولته خوفاً أن تكون الرأس سلبتها منه وأعادته إلى رجولته المفقودة نكاية في

«سمية»، لكنه خاض التجربة بنجاح وشـــكر للرأس الشيطانية تعقلها وأنهـــا لم تأخذه بجريرة زوجته .

لكن ما ســـر وجودها مع هذه الابتســـامة اليوم، هل سيضيق مرمى الفريـــق الأجنبي حتـــى يصبح كثقب الأبـــرة وتنهزم قدمـــه أمام هذا الثقب الذي يجوز فيه الخيط بصعوبة ؟!!، هل سيخرج من الملعب في نهاية المباراة واللعنات تتدفق فوق رأسه؟!! عـــادت إليه الروح التي انســـحبت من داخله منـــذ بداية المباراة عندما ســـددت قدمه كرة لا تقاوم ولا تصـــد في اتجاه مرمى الفريـــق الأجنبي، لم يصدق عندما اشـــتعلت المدرجات بهتافات تصم الأذان، هل الكرة ســـكنت المرمى؟، أحـــس بقوة جبارة هي التي دفعت قدمه لتســـجل الهدف من منتصف الملعب، لم يضق المرمى ويصبح كثقب الأبرة بل توهم أنه زاد من اتســـاعه، نظر نحو العارضة العلوية وقد اتســـعت ابتسامة الرأس الشيطانية، رفع يده بالتحية والجمهور يظنها له، كوتر أو كشـــريط من المطاط ارتخت أعصابه بعد التوتر الذي قارب أن يمزقها، تأكد أن الرأس الشـــيطانية لم تأت للأذى، لكنها أتت مسالمة ومشجعة كيوم رآها فوق مرآة التســـريحة ولم تقترب من رجولته .

كان يومـــاً حافلاً أُضيف إلى أمجـــاده الكروية بعد أن كال للفريق الأجنبي ثلاث أهـــداف تاريخية، ومهما قيل لا يمكن أن

نصف الجمهور الذي كان بينه وبين الجنون قاب قوسين أو أدنى، لم يصدق أن المباراة تنتهـــي بهذا الفوز الهائل والفريق الأجنبي له سمعته العالمية وخاصـــة أن أهداف المباراة كانت من نصيب «مروان» وحده، تدافع الجمهور نحو الملعب وحملوه فوق الأعناق وطافوا به، نظر نحو المرمى ليقدم الشكر للرأس الشيطانية، رأى ابتسامتها وكأنها تهنئه واختفت سريعاً، كأنها تريد أن تقول له حضرت خصيصاً من أجل أن أســـهل مأموريتك في تسجيل الأهـــداف، طافت عيناه تبحثان عن «سمية» في المقصورة، كانت جالســـة وكأن الأمر لا يعنيها، رصد الوجـــوم فوق وجهها من بعيد، هاجمت رأسه فكرة بلبلت أفكاره وكسرت فرحته، هل من الممكن أن تكون رأت الرأس الشـــيطانية، حـــاول أن يزيح الفكرة بأنها لو رأتها المفروض أن يكـــون الجمهور كله أيضاً قد رآها؛ لأنها لا تظهر ســـوى له وحده، حاول أن يجـــد مبرراً لوجومها فالجميع فرحتهم لا تقاس ومـــن الأولى أن تكون هي أكثرهم فرحاً، الفرحة دائماً يقتسماها، دائماً تقول له أن نجاحه في أي مباراة هو لها أيضاً، تشـــعر بالفخر دائماً أن خطيبها، ثم زوجها له شـــهرة عالمية في عالم الكرة وأكبر النوادي العالمية تحاول أن تضمه إلى فريقها . ما توقعه كان صحيحاً، «سمية» ليست هي سميـــة التي كان يراها عقب كل مبـــاراة تنتهي بالفوز، حاول وهمـــا في طريقهما إلى المنزل أن يضحكها، لكنه لم يفز ســـوى

بابتسامة باهتة، هزت رأسها هزة مائعة لا تعلن عن الفرح أو ترفضه عندما قال لها بنغمة موحية بأنهما سيحتفلان بالفوز في منزلهما على الضوء الأحمر، صمت بعد أن أحس بصمتها الذي يشبه ثقب الأبرة لا يسمح بمرور ضحكات المزاح التي كانا يطلقانها عقب كل فوز له، أغلق باب المنزل خلفه، ضمها ليقتطف قبلة من شفتيها تشعل الحماس داخله كما يشعل هتاف الجماهير الحماس في قدمه، لكنه شعر بأنها قبلة غير مكتملة كطعام ينقصه البهار، لم يفقد الأمل وعلى الضوء الأحمر حاول إعادة الكرة لعل الطاهي تذكر ووضع البهار وأعاد للطعم نكهته المحببة، أبعدته برقة وسألت وهي تنظر حولها كطفل يخشى الظلام :

- هل رأيتها ؟

بالرغم من علمه بمقصود سؤالها تجاهل الإجابة وسأل :

- من ؟

أجابت وهي تنظر في عينيه نظرة تحذير الأم لطفلها عندما يحاول أن يكذب :

- أنت تعلم من أقصد !!!

قال وهو يحاول أن يبتعد عن عينيها كطفل حاول أن يكذب ثم عاد لصراحة الطفولة :

- نعم رأيتها !!

- هل ساعدتك في إحراز الأهداف ؟!

أجاب بإيمان الواثق من دور الرأس الشيطانية :

- على الأقل لم يصبح المرمى أمامي كثقب الأبرة، وأعتقد أيضاً أنها لعبت دوراً في تسجيل الأهداف ؛ لأنك كما رأيت الفريق الأجنبي لم يكن من السهل التغلب عليه، هز رأسه للتأكيد وتابع، نعم، نعم، كنت أشعر بشيء غريب يدفع قدمي لتودع الكرة بدقة في المرمى .

نظرة خائفة انطلقت من عينيها وإحساس داهم عقلها وآثار الرعشة في جسدها بأن هناك من يفرض الرقابة عليهما وقالت :

- إذاً فأنت تؤمن بأنها هي السبب في كل الأحداث منذ فشلك في الملعب وعلاقتك معي ثم نجاحك الباهر في الاثنين .

قال بيقين المتيقن وهو ينظر نحو مرآة التسريحة متمنياً لو أن الرأس الشيطانية كانت فوقها لتستمع إلى اعترافه بها لترضى عنه :

- نعم، لا شك أن لها دورها، سواء مع الكرة أو في علاقتي معك .

قالت وكل حرف من كلماتها ينطق بالدهشة :

- تكاد رأسي تشكو الجنون وأنا أسال نفسي كيف، ولماذا اختارتك أنت بالذات ؟!

أحست بتململه ونظراته نحو مرآة التسريحة بالرغم من أنها لا توحي بشيء، قال مستعطفاً :

- أرجوك، أرجوك وأقبل رأسك، لا تفسدي كل شيء، تذكري أنها الآن لا تؤذينا، بل تقدم لنا كل عون .

قالت والخوف يلعب بملامحها الجميلة فبدت أجمل وأكثر إثارة :

- وهل تظن أن هذا العون بلا مقابل ؟!

قال وهو يحاول أن يطمئن أحاسيسه :

- على الأقل حتى الآن لم تطالبني بأي مقابل !!

أرادت أن تزيد لكنه وضع يده فوق فمها وقد بلغ القمة وهو يتأمل ملامحها وقال راجياً :

- أرجوك، لا تطفيء الفرحة بداخلي، رغبتي في أن أحتويك بين ذراعي لا تقاوم .

تأملـــت وجهه الذي يبدو كوجه طفل محروم وشـــعرت بكم هائل من الحنان نحوه دفع بابتسامة فوق شفتيها وتركت كل نفسها لتنساب داخل حضنه . لم يتوقع أن يصطدم بهذا الصادم الذي أحس به كجبل يهوي فوق رأسه وهي تهمس في أذنه بعد أن وصلت آهات المتعة إلى القمة، ثم خفتت تســـأله أغرب سؤال يمكن أن يُسأل في هذه اللحظات :

- هل كنت أنت أم الرأس الشيطانية ؟!!!! .

انتفض كمن لدغته حيات العالم كلها وقال بصوت يحمل من الآلام كماً هائلاً :

- حرام، حرام، ما تفعلينه بي يا سمية !!

قالت مستمرة في قسوتها :

- ألم تعترف بأنها ســـاعدتك في الملعب، فلماذا لا تساعدك فوق الفراش أيضا؟!!! .

أحست بانتفاضة هزت الفراش كزلزال لم يبلغ أقصاه بعد، وضعت يدها فوق وجهه، ابتلت بماء ساخن زرفته عيناه بسخاء، أحســـت بأكثر من طعنة خنجر تضرب قلبها، دفعت بذراعيها تلملمـــه وتضغطه داخل حضنها وهي تصرخ بتأنيب الضمير :

- سـامحني، سامحني يا مروان، أقسـم لك إنني لم أقصد أن أجرحك، لسـت أعلم كيف لفظ لسـاني بهذه الجريمة التي يجب أن أعاقب عليها نفسـي، صدقني لست أعلم كيف تفوهت بها ؟! . نافورة من المياه السـاخنة اندفعت من عينيها لتختلط بدموعه وتعيد الدفء إلى قلبيهما، همست في أذنه، كم أحبك، همـس في أذنها بكلمـات مازحة، إذاً دعيني أثبـت لك إنني أنا وليست هي .

تصاعدت الحلقات الزرقاء وامتـــلأت الغرفة بدخان أزرق له رائحة يمرح لها كل مـــن يتعاطى الكيف، لم يخبر «سمية» أنه ســـيذهب في جلسة ليس الغرض الأول منها أنفاس الشيشة قدر ما هـــي الأمل في مقابلة مع الرأس الشـــيطانية كما أتت إليه عبر الحلقـــات الزرقاء قبل ذلك وتعاهدا على الالتزام بالوعود والعهود، بعدها التزمت الرأس الشيطانية معه كأحسن ما يكون ووفت بوعدها، أعادت إليـــه رجولته وأعادت له مجده في الملعب، حتـــى الآن لم تطلب منه أي شـــيء ولم تلزمه بأي عهد أو وعد، اســـتغل «مروان» استئذان « سمية « لقضاء ليلة مع أبيها وأمها، لم يســـتطع أن يخبرها بأن عليه أن يسارع بالذهاب إلى صديقه «العســـيلي» الذي لا تعلم عنه أي شيء، لم يخبرها مروان بأمر هذا الصديق الذي اعتاد أن يجالسه وفي رفقتهما من يأخذهما إلى عالم آخـــر، الشيشـــة بأحجارها المتوهجـــة والتي تذوب في

أحضان توهجها قطع الحشيش الذي يدغدغ دخانه حواسهما، ويدخلهما لمشـــاهدة الأفلام الخيالية عبر حلقاته الزرقاء، هذه الجلسات للدخول في عالم الســـعادة فقط وقطع الصلة نهائياً عن العالم الخارجي، عندما تلعب أنفاس الشيشة يتركان عالم الأرض بالكامـــل ويندفعان في رحلة ممتعة إلى أي كوكب آخر وأحياناً يشـــعران بأنهما يحلقان في الفضاء مع النجوم وأنهما أصبحا كالفراشات الهائمة، العسيلي ضحك بل قهقه عندما رأى «مروان الشـــربيني» أمامه، صـــاح بصوت تأرجح بين اليقظة والأحلام أو الانســـجام والشيشة تقرقر بين يديه :

- كما يقولون يا مروان « من لقى أحبابه نســـى أصحابه «، منذ أن تزوجت وخطوتك أصبحت عزيزة تأتي كفاكهة نادرة في غير موعدها !!!!.

ضحك «مروان» ضحكة غير مكتملة أو بمعنى آخر لا تفصح عن سعادة وقال :

- كنت أطلب من الله أنني عندما آتي أجد الشيشة تقرقر بين يديك؛ لأنك بعيداً عنها يكون ثقل ظلك لا يحتمل .

أطلق «العســـيلي» قهقهة زادت من التفـــاف حلقات الدخان الأزرق حـــول بعضها وقال:

- فقط أتســـاءل أي ريح قذفت بك إلىً كمركب لعبت بها الأمواج وســـاقتها إلى شـــط غير المقصود، منذ متى يا رجل لم أرك ولم أســـعد بوجهك الذي تشـــكله أنفاس الشيشة مع كل سحبة إلى شكل آخر، اجلس يا مروان فلقد اشتقت إلى أن أستمع إلى كلماتـــك الخارجة عن الوعـــي ولا أفهم لها معنى عندما تدغدغك أنفاس الحشيش وتحولك إلى مروان آخر غير مروان الذي يكاد جمهور الكرة يعبده . كان مروان قد وعد نفسه بأنه لن يذهب إلى جلسات الكيف ثانية بعد أن استرد عافيته كلاعب وكرجل، لكن ظهور الرأس الشـــيطانية وابتسامتها الكريهة في غرفة نومه وفوق المرمى أثارا الشـــكوك داخله بأن هذا الظهور يعني أنها تذكـــره بوعده ومعاهدته وكأنها تقول له أنها تريد أن تراه، لكن أين ســـيراها إن لم يكـــن في عمق الحلقات الزرقاء لجلسات الكيف، المرة الأولى التي تبادل فيها الحديث معها ووقعا معاهـــدة الصلح كانت في نفس هذا المكان ومن خلال الحلقات الزرقاء الكثيفة ووقتها وقعا عقد الصلح وانتهت أزمته، الحديث المتبادل بينهما لم يفقه منه « العســـيلي « أي شيء وفسرها على أنهـــا جرعة زائدة لعبت برأس مروان وأدخلته في هلوســـة المتعة وأنه انسحب ســـريعا إلى زوجته ليكمل هذه المتعة وهما لا يزالا في شهر العسل .

أجاب «مروان» عن سؤال «العســـيلي» عن سر غيبته الطويلة في داخله ولم يفصح بها على مســـمعه، قال أنه لولا حاجته إلى لقاء الرأس الشيطانية كان من الممكن أن تطول غيبته وتطول وقد تمتد إلى الأبد، لأنه أخذ عهداً على نفســـه أن تكون حياته مع «سميـــة» مبنية على الصراحة وهذا ما دفعه لأن يعترف لها بمعاهدته مع الرأس الشـــيطانية بعـــد أن وجد رجولته، لكن لم يذكر لها عن رؤيته لها في عمق الدخان الأزرق وهو مع «العسيلي» رفيق الشيشة، أصابته الدهشة عندما فات عليها أن تسأله كيف أو أين تم اللقاء بينهما، لم يشأ اليوم أن يخبرها بخطوته خوفاً عليها، يرى وجهها وقد تحول إلى تمثال من الشمع عندما يأتي ذكر الرأس الشيطانية وخاصة بعد أن رأتها فوق عارضة المرمى، فماذا لو أخبرها اليوم بأنـــه في الطريق إليها ليحاول أن يعرف ما ســـر اهتمامها به، وماذا تطلب مقابل منحتها المزدوجة له . ضحك «العسيلي» وهو يمد يده بالشيشة إليه ويقول ضاحكاً :

- خذ القطفة الأولى من هذا الحجر فلقد سبقتك وابتلعت أنفاس عدة أحجار قبل مجيئك وأشعر بأنني أحلق قرب سقف الغرفة !! .

ضحك «العســـيلي» عندمـــا امتدت يد مـــروان لتختطف الشيشـــة كرضيع يبحث عن الارتواء من ثـــدي أمه، الحقيقة

لم يكـــن هو الظمأ لابتلاع دخانها قدر التلهف على رؤية دخانها الأزرق وهو يموج في الهواء، وتلتف حلقاته حول بعضها كدوامة في قلـــب المحيط تبتلع كل من يحـــاول أن يخترق قلبها، كان ينتظر العكس، أن تلفظ الدوامة من قلبها الرأس الشـــيطانية ليدخل في حوار معها ليعرف ماذا وراء مطاردتها له منذ البداية، حتى لو كان ما سيســـمعه يمكـــن أن يتعب فكره فالوصول إلى الحقيقـــة دائماً مهمـــا كان مؤلماً قد يكون فيـــه بعض الراحة كمريض تاه الأطباء في توصيف مرضه، لكنه قد يشعر ببعض الراحة عندما يُعرف سر هذا المرض حتى لو كانت فيه النهاية . الأحجار تعددت وأفرغت محتوياتها داخل رأســـه فحولتها إلى ريشـــة تتقاذف بها الريح وتحول فـــراغ الغرفة إلى غيمة زرقاء لفته من كل جانب، لكنه لم يصل إلى الغاية التى أتى من أجلها بعد . ضحك «العسيلي» عندما سمعه بأذن تأتي إليها الكلمات كصفير ريح بعيدة يطلب المزيد وقال بلســـان تحولت كلماته المختلطة بقهقهته إلى ما يشبه الفقاقيع الرغوية التي تخرج من لعبة الأطفال:

- كفـــاك يا «مروان» لم تعد بـــي قوة لأحملك إلى منزلك وسترقد هنا حتى الصباح وتنعي زوجتك المسكينة حظها وهي ترقد وحيدة.

قهقه «مروان» ليجاري قهقهتـــه والأمل لم يفارقه بعد في أن تنبت الرأس الشـــيطانية من جوف الدخان الأزرق وقال :

- أرقـــد أنـــت ولا تنعي هم حملي، فأنـــا لا أزال في منتصف الطريق، لم أحصل بعد على متعة الغيبوبة اللذيذة، التوقف الآن لا معنى له كالمثل الذي يقول «رقصت على السلم لا اللي فوق شافوها ولا اللي تحت شافوها» .

قال «العسيلي» وهو يزحف ليرقد في مكانه والفقاقيع الرغوية قد بدأت تتلاشى :

- ارقـــص يا خويا في الحتة اللي تعجبك، خد راحتك حتى لو حبيت ترقص «استربتيز»، لكن الذي يثير عجبي كيف اشتد عودك فجأة في عـــالم الكيف، كنت تطير إلى عالم الأحلام بعد الحجر الثالـــث أو الرابع على الأكثر، فجـــأة تنقلب الأوضاع أنا تثقل رأســـي وأنت لا تزال تطلـــب المزيد، فعلاً لم يكذب المثل «علمناهم الشحاته سبقونا إلى الأبواب»، ياه يا مروان، «لم يُكمل وأطلق شخيرة عميقة» .

أعلن «مروان» عـــن ارتياحه بنفس عميق عندما ثقلت رأس «العسيلي»، وبالرغم من أن الحجر لا يزال عامراً استبدله بآخر وهو يطلب المزيد من الدخان الأزرق فقد يغري الرأس الشيطانية

لتأتي ويكون الدخان بالنسبة لها كوسادة مريحة فترضى عن كرمه وتفضي إليه بما يريح أعصابه المتعبة، وقد يجد فيما تقوله ما يهديء به خاطر «سمية» .

٩

كاد أن ييأس، اهتزت الأفكار داخل رأســـه وزاد من اهتزازها شراهة لم يعتدها في ابتلاع أنفاس الشيشة المطعمة بالكيف، ثم نفخها بكثافة بعد أن تكون خلاياه قد امتصت الوفير من سحر الكيف، اختفى سقف الحجرة تماماً، حجبته كثافة غير عادية من موجات الدخـــان الأزرق والتف بعضه حول المصباح فتحول ضـــوءه إلى غيمة زرقاء، وبالرغم من هـــذا البذخ في الدخان لم ير أو بدا ما يوحي بأن الرأس الشـــيطانية قد أحست بوجوده أو اشتياقه المضطر لرؤياها، ينظر إلى وجه العسيلى ويحسد صوت أنفاسه الذي ارتقى لمستوى الشخير، قفزت إلى رأسه فكرة عابرة كيف كان سيسلك «العســـيلي» لو كانت الرأس الشيطانية اختارته هو ؟!، لكن لماذا ســـتأتي إليه أو ما الذي يمكن أن تفعله له أو ضـــده وهو لا يملك أي نجومية ولن تســـتطيع أن تقيد رجولته أو تفكها وهو قد حرن على الزواج حتى بلغ نهاية عقده

الخامس وانطفأت الشعلة تماماً، يكتفى بضيافة إحدى بائعات الهوى من وقت لآخر كإثبات لرجولته .

عادت عيناه من رحلتها المتأملة في وجه «العسيلي» وذهبت في محاولة لاختراق جوف سحابة الدخان الأزرق فقد تكون الرأس الشيطانية قد أتت وتركته في تأملاته، فتح عينيه وأغلقهما عدة مرات وهو يظن أن الأوهام لفت رأسه أو أنفاس الكيف ناخت بثقلها على فهمه، لكنه اكتشف أن لا وهم لف رأسه ولا ثقل الأنفاس ناخ على فهمه، بل الرأس الشيطانية موجودة بالفعل والابتسامة الكريهة تسبقها وكأنها تسأله عما كان يستطلعه في وجه «العسيلي» وهو يغط في نومه .

حاول أن يبدأ بالحديث لكنه أحس بشيء يقبض على لسانه فبدأت الرأس الشيطانية بالحديث لتفك عقدته.

- أحسنت بحضورك اليوم .

طرب لاستحسانها وفُكت عقدة لسانه وقال :

- ظهورك فوق مرآة التسريحة وفوق عارضة الملعب أعطياني الإحساس بأنكِ تستدعيني.

قالت الرأس الشيطانية وقد ازدادت ابتسامتها وزادت معها قباحتها :

- إحساسك مضبوط لكن أعتقد أن ظهوري في الحالتين أدخل السرور على قلبك !

قال بلسان حاول أن لا يفضح كذبه متصنعاً الابتسامة :

- بالتأكيد، وأي سرور يفوق هذه السرور الذي أحسست به وارتعش له قلبي طرباً عقب الفوز على الفريق الأجنبي، وتأكدي بأنك كنتِ خلف كل هدف من الأهداف التي سجلتها، وأرجو أن تكون رسالة تحيتي التي قدمتها قد وصلت إليكِ .

قالت الرأس الشيطانية وقد انكمشت الابتسامة لتتحول ملامحها إلى الجدية :

- نعم، تقبلتها وفهمتها وعلمت أنك أصبحت الآن على استعداد للتعاون معي وأن العهد بيننا سيزداد متانة .

توجس قلبه واهتزت أعصابه خيفة وقال :

- لن أنسى أفضالك وأنا معك قلباً وقالباً والعهد بيني وبينك لن يُفصم أبداً :

- هذا ما توقعته منك، ثم أردف بلهجة لم يخف تهديدها الخفي على أذن « مروان »، هكذا يفكر العقلاء .

نظـــرة رجاء صاحبها الخوف والتردد بـــدت في عيني «مروان» حـــاول التغلب عليها ليتمكن أن يخرج مـــا يفكر فيه إلى طرف لســـانه، نجح وخرجت كلماته مرتعشة :

- هل تسمحي لي بسؤالين .

قالت الرأس الشيطانية والابتسامة الكريهة تتشكل من أضيق لأوسع :

- ســـل كما تشـــاء، نحن نؤمن بالديمقراطية، بعض حكام البشر يتشدقون بها ولا تنفذ في أغلب الأحيان، لكن نحن نؤمن بها وننفذها ثم أردف وقد ضاقت الابتســـامة حتى أوشـــكت أن تتلاشـــى : ولا نلجأ لديكتاتوريتنـــا إلا إذا عصى على البعض فهمها .

قال «مروان» وقد زاد على التردد والخوف دهشة حقيقية :

- لقد زادت الأسئلة إلى ثلاثة فهل تسمح لي .

قالت الرأس الشيطانية وقد فطنت إلى غرضه .

- لقد سمحت لك وقلت اســـأل كما تشاء لكن قد تتلقى الجواب عن البعض وقد تؤجل الإجابة عن البعض الآخر إلى أن يحين الوقت المناسب .

- إذاً سأبدأ بسؤالي الذي ساقه حديثك الآن، لقد استخدمت كلمة «نحن» فمن أنتم وهل يوجد غيرك .

عادت الابتسامة الكريهة إلى كامل اتساعها وأجاب :

- هذا السؤال من الأسئلة التي لا يمكن الإجابة عنها الآن، لكن ستجيب عن نفسها تلقائياً فيما بعد، فانتقل إلى سؤالك التالي .

ارتجف قلب «مروان» وبدت الارتجافة في اصفرار وجهه وسأل :

- السؤال التالي : لماذا اخترتني أنا بالذات ؟!

تكلمت الابتسامة في شبه قهقهة :

- أنا لم أخترك، أنت الذي استدعيتني .

بدت دهشة عارمة فوق وجه «مروان» وسأل وعلامات التعجب كثيفة :

- أنا استدعيتك، ثم مقطباً .. متى ؟!!!!! .

أجابت الرأس الشيطانية :

- ألا تتذكر عندما خلعت حذاء قدمك اليمني ودفعت بقدمك لأعلى داخل غمامة الدخان الأزرق وناديت على آلهة السلطنة .

عادت رأس «مروان» بسرعة إلى ذكريات تلك الليلة وكأنها حدثت بالأمس عندما حلقت رأسه مع الدخان الأزرق الذي كان يتماوج داخل الغرفة والذي على حد قوله ينعش حوائطها فتتمايل راقصة، تبلورت داخل رأسه فكرة مسطولة أن قدمه لو استنشقت من هذا الدخان الأزرق ستزداد مهارتها، خلع حذاءه ورفع قدمه اليمنى لأعلى لتأخذ حقها من الأنفاس الزرقاء التي تتلوى كالثعبان والتي كان يطلق عليها الأنفاس المبروكة التي تحول قدمه إلى مايسترو يتفنن في كيفية إرسال الكرات إلى مرمى الفريق المنافس، أعاد الجورب والحذاء سريعاً حتى تختمر الأنفاس مع القدم وتنتعش في المباراة التالية وهو يردد فلتعطينا بركتك يا إله السلطنة، ليلتها لم يعرف إن كان ما رآه بعد ذلك حقيقة أم هو هلوسة المساطيل، وسط الدخان الأزرق شاهدها، رأس شيطانية نظراتها تشبه حجر الشيشة عندما يتجمهر فحمه، سمع ضحكة أثارت الرعب بداخله وسأل «العسيلي» إن كان سمعها أيضاً، قهقه «العسيلي» حتى كادت أن تتقطع أنفاسه، جذب الشيشة من يده وهو يردد مع قهقهاته، كفى، كفى، أنه شيطان مدرب الفريق يريد أن يقول لك أنه كشف أمر هذه الجلسات العامرة .. عادت رأسه من ذكريات هذه الليلة وعلى وجهه تشكلت خيوط تقاطع بعضها وكأنها الندم يلوم بعضه وسأل الرأس الشيطانية :

- وهل أنت آلهة السلطنة الذي ناديته في ذلك الوقت ؟!

أجابت الرأس الشيطانية بطريقة تقطع عليه طريق الاستزادة :

- قد أكون أنا أو قد أكون تابعة لها، والآن انتقل إلى السؤال الثالث .

أحس مروان أن الأمـــور تزداد تعقيداً، أطلـــق بعض أنفاس الضيق وسأل :

- لماذا اخترت هذا المكان لنتقابل فيه ؟!

أجابت الرأس الشيطانية :

- أنت أيضاً الذي اخترت المكان ولســـت أنا، فلقد ناديت آلهة الســـلطنة هنا، وأيضاً في هذا المكان يوجد عميل من عملائنا .

نظر «مروان» حوله، وأكثر من مرة يغلق ويفتح عينيه وكأن ســـحابة ســـوداء برزت فجأة لتحجب عن ناظره كل ما حوله وسأل وكلماته تقطر الفزع :

- عميل من عملائك هنا في هذا المكان، لست أفهم ؟

قالت الرأس الشيطانية وهو تومئ نحو «العسيلي» الذي كان شخيره يصل إلى سقف الغرفة ويرتد ثانية :

- نعم صديقك العسيلي من عملائنا !! .

بدت ابتسامة فوق شفتي «مروان» يمكن أن تعبر عن أي شيء حتى البلاهة لكن لا تحمل أي ذرة من أن تكون ابتسامة استحسان أو تصديق لما قالته الرأس الشيطانية وقال ولأول مرة تعتلي كلماته نبرة القوة :

- أنا لا أصدق هذا وإلا كان أخبرني !!! .

قالت الرأس الشيطانية :

- وهل أنت أخبرته ؟!

- لا لم أخبره .

- إذاً لماذا تدهشك فكرة أنه لم يخبرك .

- لكن هل يعلم هو بلقاءتنا.

- بالتأكيد لا، لم أخبره ولا أنوي إخباره الآن، فلا ينزلق لسانك أمامه، ومن أجل هذا أثقلت قطع الكيف في أحجاره الليلة، لأني كنت أعلم بأنك ستحضر، حتى ينام نوماً ثقيلاً ولا يحضر مناقشتنا الآن .

ازدادت الحيرة فوق وجه مروان وأحس بأنه تاءه في صحراء شاسعة مخيفة بالرغم من صغر الحجرة وسأل بانزعاج حاول أن يخبئه :

- تقول أنك كنت تعلم بحضوري الليلة بالرغم من أنني لم أقرر الحضور إلا بعد أن أخبرتني «سمية» بأنها تريد أن تقضي الليلة مع والديها، نعم كنت أنوي الحضور بالفعل لعلي أستطيع أن أراك، لكن لم أحدد هذه الليلة إلا قبلها بساعات فكيف ؟!!

افترشت الابتسامة الكريهة وجهه وقال :

- أنا أحب عملائي ولذا أتابعهم دائماً .

- لكني أنا لست من عملائك !!!

تحولت الابتسامة الكريهة إلى قهقهة مزعجة وقال :

- عندكم في البشر ما يسمى بالانتماء الشرفي والانتماء الرسمي، ونحن أيضاً، قبل ذلك وحتى الآن كنت عميلاً شرفياً ولكن منذ الليلة ستصبح عميلاً رسمياً .

- وهل هناك اختلاف؟!

- نعم، اختلاف كبير، كنت عضواً غير عامل ومنذ هذه الليلة قيدت في سجلاتنا أنك من الأعضاء العاملين .

ألا تتذكر العهد الذي قطعناه معاً في تلك الليلة، لقد بدأت معك هذا العهد منذ تلك الليلة وأعتقد أنك رأيت النتائج فوراً، وأنت ستبدأ عهدك معي منذ الليلة، ويجب أن

تكون وفياً معي كما كنت وسأظل وفياً معك، طالما لم تُبد أي نكوص في عهدك.

أحـــس «مروان» بأن قدمه قد بـــدأت في الانزلاق إلى حيث لا يعلم وسأل متلهفا :

- وما هو المطلوب مني لأكون وفياً بالعهد ؟

انزاحت الابتسامة تماماً من فوق وجهه وبدت صرامته المقززة وأجاب :

- أولاً أن تنتقل من العميل الشـــرفي والعضو غير العامل وأن تُسجل في سجلاتنا .

بالرغم من مرارة داخلـــه كاد «مروان» أن يطلق قهقهة غير محسوبة النتائج عندما سمع كلمة السجلات وسأل محاولاً أن يبدي بعض الجدية على سؤاله :

- وكيف يكون القيد في سجلاتكم ؟!

بلغت الصرامة حداً مخيفاً وقال آمراً وهو يومئ برأســـه نحو «العسيلي»

- أكشف عن الكتف اليمنى لصديقك «العسيلي»

بعـــض التردد بدا على وجهه حـــاول التغلب عليه بالفضول الذي أحس بأنه أصبح أمامه كشيء واقع واتجه نحو «العسيلي» وشخيره لم يهدأ ولا تبدو عليه النية للهدوء، أزاحه حتى انقلب علـــى وجهه، رفع قميصه عن ذراعه الأيمـــن، اندفع إلى الخلف وكأن تياراً كهربائياً ســـرى في بدنه وصعقه حتى الموت، وشم «تاتو» الرأس الشـــيطانية نفذ بدقة على كتف صديقه باللون الأحمر والأزرق بنفس صرامتها المقززة وكأنها صورة فوتوغرافية من الأصل .

قالت الرأس الشيطانية بصوت مقزز كصرامة الوجه :

- هل علمت الآن معنى أن تسجل في سجلاتنا .

ســـأل مروان وأحس بأن بداية المتاعب قد أوشـــكت وأن عليه ضريبة باهظة لا يعرف كنهها حتى الآن مقابل أن يظل فارساً في الملعب وفوق الفراش .

- وهل من المفروض أن أقيد أنا في سجلاتكم بنفس الأسلوب؟!

- شـــيء سهل ســـتفعله وســـيكون مدفوع الأجر وسأخبرك كيف بعدها تصبح عضواً عاملاً معنا وتنعم بالشهرة في الملعب والفروســـية أمام زوجتك !! .

خرجت تنهيدة من داخله وأحس بنغزة تثقب قلبه وقد تذكر «سمية» بعد أن انتهت علاقة الفراش الممتعة وسؤالها هل كنت أنت أم هي «تقصد الرأس الشيطانية»، وسال :

- هل الالتحاق بالعضوية الرسمية مشروطاً بهذا الوشم ؟!

عادت الابتسامة الكريهة معاتبة وقال :

- ماذا يضايقك ؟ هل تضايقـــك صورتي التي تجلب لك الحظ، ثم إنها ســـتكون على ذراعك، الكثيرون الآن يفتخرون بهذه الرســـومات مجاراة للموضة كما تقولون .

أحس بالخـــوف وعاد إلى تودده ســـريعاً وخاصـــة أنه أحس باشتياق طاغ نحو سمية ورغبة في أن يضمها إلى صدره كأنيس له في هذه الغربة التي يشـــعر أنها داهمتـــه من حيث لا يدري، الخوف الراسخ في ذهنه بأن الرأس الشيطانية قادرة أن تمتد إلى رجولته دفع بداخله بجرعة أنه من الأفضل ألا يكتسب عداوتها وقال مسرعاً :

- أنا بالتأكيد لا أقصد ما تقوله، نحن نتقابل وجهاً لوجه، فما الذي يضايقني من وجود صورتك فوق ذراعي .

فقط الحيرة أخذتني وأنا أفكر كيف وأين أتمكن من وشمها .

- يبدو أنك تصاب بالنسيان أحياناً، لقد قلت لك، لا تنعى هماً لكل هذا بل سيكون مدفوع الأجر، ثم أردف مع الابتسامة المفروشة الكريهة، نحن لا نكلف عملاءنا، بل نقدم لهم كل ما يحتاجونه .

أحس بالطمأنينة بعض الشيء لكن حيرة لطمته بشدة، ماذا سيقول ل «سمية» وماذا ستقول له، وكيف سيبدأ النقاش معها ويخبرها بهذه المصيبة وأنه لا مفر من أن تكون الرأس الشيطانية واقعاً في حياته ولا يدري إلى متى !!، لا بد أن تعلم أن الموضوع لا خيار فيه ولا يقبل الرفض، تسللت عينه نحو «العسيلي» متعجباً، استردها سريعاً وقرر أن يخوض ما لا بد منه وسأل الرأس الشيطانية :

- أين يمكنني وشم الصورة ؟

تصفيقة ارتجت لها الغرفة وصوت الرأس الشيطانية يقول مع ابتسامته المفروشة فوق وجهه:

- برافو، مبروك لقد انضممت إلينا الآن، احترم فيك عدم ترددك كثيراً .

- اسمح لي بسؤال، هل كانت هناك تصفيقة أم هذا من ورد الخيال، هذا ما كان يسأل فيه «مروان» نفسه، لكن الحقيقة

تقول أنه كانت هناك تصفيقة كادت أن تثقب أذنه، رفع رأسه يتأمل الرأس الشيطانية، رأس فقط، لا تحمل أي أطراف، حاول أن يتجاهل ويصمت لكن الفضول دفع بالسؤال دفعاً دون تحكم أو سيطرة مقروناً بنظرة مندهشة تفصح عنها عيناه بكل قوة :

هذه التصفيقة التي لم أسمع مثلها في حياتي .

انقلبت الابتسامة إلى قهقهة وأجاب :

- تبدو أمامي الآن كطفل صغير أمام قطعة من الحلوى ظهرت فجأة أمامه ووالده يخبره بأنها أتت من كوكب المريخ، كل اندهاش الطفل كان هو لظهور قطعة الحلوى، لكن لم يفكر كيف أتت من المريخ . كل ما أفعله معك لم يثر دهشتك قدر دهشة هذه التصفيقة .

- حقيقة نعم .

- إرضاء لفضولك أقول لك أن هذه التصفيقة من زملاء لك أنت لا تراهم حضروا خصيصاً للاحتفال بانضمامك إلينا، وعندما تعود إلى المنزل ستجد هدية لك وهدية ل «سمية» فوق التسريحة التي أظهر لك من خلالها احتفالاً بهذه المناسبة.

لم يشعر بمفاصله قد تخلخلت قبل ذلك كما تخلخلت الآن، تدريجياً يجد خطواته تسير في طريق مجهول لا يدري أين

نهايته، الآن اكتشـــف بأن أتباعًا غير منظورين يرصدونه، وهم الذين وضعوا له الهدايا فوق التسريحة، ثم ماذا سيأتي به الغد ؟ !!!!!!. سأل وكأنه يريد أن ينتهي من هذه الليلة التي حملت له من المفاجآت ما ســـيدع فكره لن يهدأ طوال الليلة، للحظات نســـيَّ ما هو فيه وفكر، ماذا لو تسلل إلى منزل « حماه « وفاجأ « سمية « ويقول لها عودي معي إلى المنزل ولا داعي لقضاء الليلة بعيداً عن حضني، لم يشـــعر بحاجته إلى حضنها من قبل كما يحتاجه الليلة، يشـــتهي أن يدفن رأســـه في صدرها فقد تعينه لدونته على الاســـتغراق في النعاس . عاد من لحظات الفكرة و تذكر أن عليه أن يسأل:

- أعتقد أنه حان الوقت لتخبرني أين وكيف سأوشم الصورة ؟.

زحفت الابتسامة بعيداً عن الرأس الشيطانية وحلت محلها النظرة الصارمة وأجاب :

- هل ذهبت إلى النوبة قبل ذلك ؟

أجاب «مروان» مـــع دقات قلبه التي تســـارعت مع خوفه من القادم :

- مطلقاُ، لم أذهب إليها، أقصى ما وصلت إليه محافظة أسوان في مباراة ودية .

بدت الابتسامة الكريهة وافترشت الوجه كله وقال :

- فرصة لتشـــاهد مدينـــة جديدة بها الكثير مما ســـيلفت انتباهك .

سأل «مروان الشربيني» ولا تزال دقات قلبه تنطق مع كلماته :

- وهل من الضـــروري الذهاب إلى هناك لعمل هذا الوشـــم «التاتـــو»؟! ألا يوجد في القاهرة أو الإســـكندرية من يقوم بهذا العمل ؟!

ضاقت الابتسامة لتحتل الصرامة الجزء الأكبر وقالت :

- نعم يوجد بالقاهرة والاسكندرية من يقوم بهذا العمل، لكن لا يوجد التابع لنا الذي يعرف كيف يقوم بعمله، هذا الرســـم له شروطه الخاصة ودقته والأهم طقوسه، فهو ليس كأي وشم، وأرجو أن يكون الـــدرس الأول هو أن لا تناقش في أي أمر يوجه لك.

قال وهو يلملم أعصابه :

- حسناً، كيف سأصل إلى المكان ؟

قالت وقد عادت الابتسامة الكريهة تفترش وجهه :

- تقصد كيف ستصلان إلى المكان ؟

قال وعلامات التعجب تسبق كلماته :

- ألم تقل لي أنك لن تخبر «العسيلي» بأمر انضمامي إليكم الآن !!!

- ومن قال أن رفيقك في الرحلة هو « العسيلي » !!!!

- فمن هو إذن ؟

قالت والابتسامة الكريهة بين التمدد والانكماش :

- زوجتك «سمية» .

فلت زمام الأعصاب وسأل محتداً :

- وما شأن زوجتي « سمية » ؟!

تلاشت الابتسامة الكريهة وعادت الصرامة وأجاب :

- لها كل الشأن، لقد أصبحت عميلة مثلك بالضبط .

- نحن لم نتفق على ذلك والعهد بيننا كان بالنسبة لي فقط .

- نعم أنت على حق، لكن هذا قبل أن تعرف زوجتك بأمري، هل نسيت أنها رأتني مثلك بالضبط ؟! .

أجاب وموجة عاتية تلعب داخل رأسه :

- قـــد يكون كما تقول، لكن معرفتها بأمرك ورؤيتها لك لا يعني أنها تصبح عميلة .

- هـــذا من وجهة نظرك، لكن بالنســـبة لنا غير مضبوط أن يتعرف علينا أي بشـــر ولا يصبح عميلاً لنا .

قال «مروان» متسائلاً :

- ولنفرض، ما هو الداعي كي تصاحبني في رحلة التاتو ؟!

أجاب بلهجة أقرب إلى الأمر :

- لأنها أيضاً لا بد أن تســـجل كعميل، الفرق بينك وبينها أن الوشم ســـيكون فوق ذراعك أما بالنســـبة لها سيكون أعلى فخذها .

انتفض «مروان» قائلاً :

- أعتقد أن كل ما تقوله في هذا الشأن غير مقبول .

عادت الابتسامة الكريهة وقال :

- لماذا ؟!، كثير من النساء يتمنين أن يكون لهن «تاتو» لكن لا يملكن المال لنقش مثل هذا الوشم الذي سيكون في غاية البراعة والدقة، وأعتقد أنه ســـيكون جميلاً فوق فخذ زوجتك الناصع البياض .

أحس «مروان» بالغثيان وقاوم بصقة تكاد تفلت، عاد إلى رأسه ما قالته «سمية» عن مشاركة الرأس الشيطانية له في الفراش، زأرت كرامته وهو يتخيل فخذ سمية مكشوفاً أمام هذه الرأس الشيطانية وإلا كيف عرف بأنها ناصعة البياض، انتبه إلى صوت الرأس الشيطانية وأحس بليونة كلماتها وهو تقول :

- لماذا تُصَعِب الأمر يا رجل، قد تسر زوجتك بأن يكون لها مثل هذا الوشم وخاصة بعد أن ترى الهدية الخاصة بها فوق التسريحة، وإذا رفضت، أين دورك في الإقناع بأن كل ما يعمل فيه مصلحة لكم وسيدفعكم إلى مستويات أفضل بكثير، لن أتحدث عنها الآن لكن ستلمسها بنفسك فيما بعد.

أغرته الكلمات والوعود وسأل :

- ماذا لو رفضت «سمية» ولم تسمع لي وفشلت في إقناعها ؟

عادت الصرامة بصورة أقوى وقال بلهجة لا تعرف المزاح :

- أعتقد أنها عاقلة وستفكر في الأمر على ضوء الأحداث الماضية، أما إذا لم تقدر خطورة الموقف تكون هي الجانية على نفسها .

ارتجت أعصاب «مروان» وهو يستمع لهذا التهديد عالماً أن الرأس الشيطانية تنفذ ولا تهدد وسأل :

- ماذا تقصد بقولك هي الجانية على نفسها .

لم تهدأ الصرامة وأجاب :

- أقصد أنها هي التي تكون قد اختارت لنفسها الخروج من الحياة نهائياً .

أنهت الإجابة على الباقي من أعصابه وقال بلهجة غاضبة :

- هل تقصد قتلها ؟!

أجابت بهدوء لم يحركه غضب «مروان» :

- نعم، والخطأ ليس منا بل منك، لأنك أنت الذي بحت لها بسرنا منذ البداية، وكان لا بد أن أُظهر نفسي لها حتى تعلم أن الأمر ليس تخريفاً منك وحتى تعلم أي خطورة يمكن أن تواجه لو رفضت الانضمام إلينا وتسجيل نفسها بهذا «الوشم» .

قال مروان مرتجفاً :

- أعطني فرصة لمحاولة إقناعها .

قال وقد عادت الابتسامة الكريهة :

- خذ فرصتك لكن أرجو ألا تطول وسأنتظرك هنا كما الليلة .

لم يـــدر إذا كان ما تراكم فوق ظهـــره جبلاً من الجليد أم أطناناً من الرمال، ذهبت الرأس الشيطانية وظل مع «العسيلي» ينظر إلى وجهه وزفرات أنفاسه تشق صمت الظلام، يسأل نفسه عن سر العســـيلي الذي أخفاه عنه بأنه يتبع الرأس الشيطانية ومسجل كعضو عامل معها، ما هي الوظيفة التي يقوم بها، بل ما هي الوظيفة التي ستوكل له هو شخصياً، بل ما هي الوظيفة التي ستوكل إلى «سمية» لو فرض وقبلت أن «توشم» فخذها بهذا «التاتو» المنفر، اغتم وجهه عندما تذكر «سمية»، ماذا ســـيقول لها، كيف سيفض إليها بما طلبته الرأس الشيطانية، لن يبوح لها بما قالته الرأس الشـــيطانية عن فخذها البض وإلا ستظن بالفعل أنها تشـــاركهما الفراش، نهض مثقلاً بفكره تكاد رأسه تســـقط من فوق كتفيه، ألقى نظرة أخرى على وجه العسيلي وحســـده بأنه لم يتزوج ولا توجد له نقطـــة ضعف أمام الرأس الشيطانية، لكن ما الذي اضطره للانضمام إليها؟!، أغلق الباب بعصبية ودوى ســـوى إغلاقة وكسر سكون الليل، لكن العسيلي ظل مستغرقاً في نومه .

١٠

تلاشت فكرة الذهاب إلى منزل حماه ليدفن رأسه المتعب في صدر «سمية»، فقد كل رغبة، فكرة رفض « سمية « للوشم وبالتالي قتلها أثارت براكين الخوف داخله، تخيل الحياة بدونها، أي حياة ستكون، الموت أفضل، سيقول للرأس الشيطانية اقتلني معها لأني لن أتبعك أنا أيضاً .

لم يكن يعرف كيف سيبدأ الحديث، أو بمعنى آخر هل ستواتيه الجرأة على بدئه، لكن الفرصة أتت عندما عادت «سمية» من منزل والدها في اليوم التالي ووقع بصرها على العلبتين الأنيقتين فوق التسريحة وسألته عنهما، ابتسم ابتسامة حاول أن يجعلها كريهة كابتسامة الرأس الشيطانية وأجاب :

- عليك أن تفتحيهما فهذا أسهل من الإجابة .

أتت كل الأفكار إلى رأسها لكن أبداً لم تأت، أو من المستحيل أن تأتي فكرة أنهما هدية من الرأس الشيطانية، بفضول المرأة

امتدت يدها إلى إحدى العلبتين وفتحتها، سطع بريق ما بداخلها وبهر بصرها، قلادة من الذهب الخالص المرصع بالماس، أمسكتها بيدهـــا تقلبها في يدها وبريقها ينعكـــس على وجهها، تركتها وذهبت للعلبة الأخرى، لم تختلـــف عن الأولى من حيث البريق لكنها كانت «ميدالية» لتعلق بها المفاتيح، ابتســـمت ابتســـامة عريضة وقالت :

- يبدو أن الناس أصبحت مهووسة بكرة القدم، هل هما هدية من أحد المعجبين ؟ .

حاول أن يكســـب بعض الوقت أو أمـــلاً أن تهبط معجزة من السماء على لسانه، ويستطيع أن يفصح عن هذا المُهدي الكريم وسأل ولا تزال الابتسامة فوق شفتيه :

- هل أعجبتك القلادة .

- تحفة فنية فكيـــف لا تعجبني، ثمنها يمثـــل ثروة، لا زلت أتســـاءل عن هذا المُهدي .

غاضت الابتسامة وتلون وجهه بلون لا يدخل في عداد الألوان المعروفة واستجمع كل قواه في جرأة تنضح بالخوف وأجاب :

- إنها هدية من الرأس الشيطانية .

ألقت القلادة من يدهـــا وكأنها تحولت في يدها إلى ثعبان لا تقل خطورته عن ثعبان الكوبرا وهو يســـتعد لنهش فريسته، جلســـت فوق المقعد الذي أمام التســـريحة وهبطت رأسها فوق صدرها وكأنها ستدخل في نوبة من الإغماء المفاجيء، وسألت بصوت اســـتنكر أن يكون صوت «سمية» :

- لماذا ؟!، مـــاذا تريد من وراء هذه الهدية، أنت الذي تتعامل معها وأنت تعلم أنني أســـتنكر هذا التعامل .

أجاب ورأسه نحو الأرض :

- ولماذا لا تكون صداقة معك أيضاً ونحن لا نجد منها سوى كل خير ؟

لم تصدق أن إجابته ستكون بمثل هذا اليسر، ارتفعت عيناها نحوه، وكأنها تراه لأول مرة وقالت:

- لقد استولى عليك من خلال شهرة الملعب وقوة الجنس فما شأني أنا ؟!

أجاب بيســـر أكثر وكأن قولها فتح أمامه الطريق للدخول فيما كان يخشى التطرق إليه :

- أنت شريكة حياتي وأنا وأنت شركاء في كل شيء يا حبيبتي .

- نعم شريكة حياتك لكنني لست شريكتك في الشيطان .

تلفت حوله بذعر وخشية تنبح بداخله بأن تكون الرأس الشيطانية تتجسس عليهما، لماذا لا، ألم تشاهد فخذ «سمية» الناصع البياض كحد قولها، فلماذا لا تكون موجودة الآن وحاضرة لما يدور من نقاش، قال وهو يحاول أن يغمس كلماته باللطف .

- نعم أنا شريكه وأنت زوجتي فما المانع أن يجاملك بهدية، وكما قلت إننا لم نر منها سوى الخير .

- ومنذ متى الشيطان يهب الخير وأكرر ثانية ما شأني أنا ؟!

واتته جرأة مفاجئة لم يعرف مصدرها وقال وهو يضع يده فوق كتفها وأجاب بسرعة خوفاً أن تتبخر هذه الجرأة .

- لأنه يطلب أن تكوني أنت أيضاً شريكته .

دفعت يده وهبت واقفة وأسرعت نحو باب الغرفة وكأنها تهرب من شر يلاحقها والكلمات تتبعثر طائشة من بين شفتيها :

- من المؤكد أنك جننت، هذه الرأس الشيطانية الكريهة من المؤكد دفعتك للجنون .

هرول خلفها وأمسك بها، وضع يده على فمها ليحبس بركان الغضب المندفع، حاول أن يضمها إلى صدره والكلمات تخرج مرتعشة من بين شفتيه :

- أرجوك، أرجوك يا حبيبتي، لا داعي للشـــتائم، أنا لا أضمن أن تكون متصنتة علـــى كل كلماتنا، أنت لا ترضي لزوجك الأذى .

جلســـت فوق أول مقعد صادفها وإن كانت حبست الكلمات كرجاء مروان، لكنها لم تســـتطع أن تغلق عينيها على شـــلال من الدموع، جلس على الأرض بجانب قدميها وأمســـك بيدها يشـــبعها بالقبلات والدموع، قال كطفل يسترضي أمه :

- هل تظني يا حبيبتي أنه لو كان الأمر بيدي كنت أقبل أن تكون شريكة معنا .

- أنت تحثني على القبـــول، إذاً أنت قبلت فليس من المعقول أن تعرض عليك مثل هذا العرض المجنون إن لم تر في عينيك الموافقة .

- أقســـم لك يا حبيبتي أبداً لم يكن يخطر لي على ذهني أن الموضوع يتعداني ويصل إليك، إن ما يقلقني هو تهديده بالنسبة لك .

رفعت وجهها واختلطت الدموع بتعبيرات من الخوف والهلع وقالت :

- هل تقول أن تهديدها امتد منك إلىَّ أيضاً ؟!

قال ووجهه المهزوم ينطق بالألم :

- نعم، هدد بما لا يقبله عقل .

ضحكت ساخرة وسألت :

- هل سيقف لي فوق عارضة المرمى ليضيق في وجهي كخرم الأبرة ولا أستطيع التسجيل أم بشيء آخر كما يهددك !!!!

أجاب وهو لا يعرف كيف ينطق بالكلمات :

- بل هدد بقتلك !!

فزعت عيناها وكادت أن تخـــرج خارج بيتهما وقالت بصوت تكاد نبراته تقتل بعضها :

- يقتلني ؟!!!!

حاول أن ينتهز الفرصة ليُكمل ما بدأه وقال :

- قال إن لم توشمي رأسه فوق فخذك لتثبتي أنك انضممت رسمياً سيقتلك .

أتـــت العاصفة بكل ما تحمله ووقفـــت والغضب يتطاير من عينيها كرمالها وقالت بصـــوت يكاد أن يثقب الجدران ويخرج خارجها :

- فلتذهب أنت وهـــي إلى الجحيم، أنا لا أكترث لتهديداتها الجبانة ولن أرضخ لأي أوامر منها .

قفز «مروان» نحوها محاولاً أن يحتويها بين ذراعيه وكلمات الرجاء تلاحق بعضها كي توقف ثورتها حتى لا تكون وبالاً عليها وعليه . تملصت منه وفي لحظة تحولت إلى السكينة والهدوء كأن شـــيئاً لم يحدث، جلست فوق المقعد واحتوت رأسها بين كفيها، ظل واقفاً أمامها لا يســـتطيع أن يخمن ما برأسها، لكن الجواب أتاه سريعاً عندما رفعت وجهها وعيناه ممتلئة بإصرار يكاد ينطق وقالـــت بصوت قـــد يحمل بعض الندم لكـــن لا تنقصه القوة :

- «مروان»، لم يبق أمامنا سوى الطلاق، الوسيلة الوحيدة التي تنهي هذه المهزلة .

صعقته كلماتها وحاول أن يكذب سمعه وسألها وكأنه فاق من غيبوبة طويلة :

- هل سمعت كلمة الطلاق يا سمية ؟!!

- نعم قلتها يا مروان ومصـــرة عليها، الأمر وصل إلى نقطة لا يفيـــد معها أي نقاش فأرجو أن ننهي كل شـــيء ببســـاطة ولن نعجز عن تبرير الموضوع دون أن يأتي فيه أي ذكر للســـبب الحقيقي حتـــى لا يلحقك أي ضرر منها .

بالرغم من الطعنـــة التي أصابت قلبه إلا أنه شـــعر ببعض الراحـــة وكأن موضوع الطلاق كانت فكـــرة غائبة عن ذهنه، الطلاق أفضل من أن تُقتل حبيبته «سمية» أمام عينيه، نبشـــت رأســـه فكرة أقلقته، لكن ما الذي يضمن أن الرأس الشـــيطانية تقبـــل بهذا الحل وخاصة أن سميـــة أصبحت مطلعة على كل شـــيء مثلها مثله، نظر نحوها لكن لم يســـتطع أن يتحكم في عينيه أكثر من ذلك، تفوقت عليه وزفت دموعها كما لم تزفها من قبل، لم تطق «سمية» أن ترى دموع انكســـاره، نهضت وألقت بنفســـها بين ذراعيه، احتضنها بقوة أنت لها، حكت الدموع عن كل مـــا في قلبيهما من لوعـــة وألم، قال من خلال زفراته :

- أكاد أجن، لســـت أعرف ماذا أفعل، صدقيني يا حبيبتي لو كان موتي يبعد عنك أي خطر لتنازلت عن حياتي بكل سماح، ولو كان الطلاق الذي لا تقل درجته عن موتي هو الذي سيبعد عنك الخطر ســـأقبل به عن طيب خاطر، لكن سأبوح لك بما في داخلي، هل ستقبل الرأس الشيطانية بهذا الحل؟، نعم، يجب أن تقبل، وإلا فليقتلني أنا أيضاً لأني لن أرضخ لها إن لم تعدني أن تتركك في أمان، سأذهب وأواجهها بكل قوة.

قالـــت سمية وهي تحـــاول أن تبث في داخلهـــا بعض القوة لتخرجـــه من مرارته التي قاربت أن تســـوقه إلى الانهيار التام :

- لمـــاذا لا تعـــرض عليها أن تتركنا في حالنـــا وكما كنا، يمكنك أن تعمل كرجـــل أعمال في أي مجال بعيداً عن الكرة، أما من حيث علاقتنا صدقني سأرضى بك في أي وضع، يكفيني قلبك ولا أطمع في أي شـــيء آخر أكثر من ذلك، أذهب إليها وقل لها إننا سننســـى كل ما حدث .

قال وبارقة من الأمل أضاءت وجهه :

- وهل تظني أنها ستقبل ؟

قالت وبعض خيوط الشك قد تجمعت فوق جبهتها :

- الأمر يستحق المحاولة .

- وماذا لو رفضت ؟

أجابت والدموع تحاول أن تعيد الكرة :

- آسفة يا « مروان »، لا أريد أن أردد ما قلته ثانية، هذه الكلمة تدمي قلبي فأنت تعرف كم أحبك، لكن لا أستطيع أن أسير في هذا الطريق، وكـــم أود أن تنجح أنت في أقناعها، وخاصة لدىَّ ما أود أن أخبرك به .

- ما الذي تودين أخباري به يا حبيبتي ؟

لاحت على وجهها ابتسامة تغلفها المرارة وأجابت :

- ستصبح أباً عن قريب بإذن الله .

١١

قهقهة ارتجت لهـــا الحوائط وصيحة مصحوبة بالدهشـــة أطلقها العســـيلي قائلاً :

- ما هذا الرضا، زيارتان خلال أسبوع واحد !!!

أجاب «مروان» وهو يحاول أن يضع ابتسامة فوق شفتيه :

- إذا كان هذا يضايقك أستطيع الانصراف فوراً .

قال العسيلي وهو يجذبه للداخل :

- تنصـــرف إلى أين يا رجل، إحســـاس قـــوي في داخلي منذ الصباح بأنني ســـأراك اليوم، ومن أجل هذا زدت في عدد الأحجار وأكرمتها بالكيف .

- وما الذي أنعش أحاسيسك نحوي اليوم ؟

- لست أعلم يا صديقي، منذ أن كنت هنا المرة السابقة وأنا أشعر بأن شيئاً أصبح يربطنا سوياً .

انتزع «مروان» ضحكة من داخله قائلاً :

- أحجار الشيشة وما بداخلها تربط بيننا برباط قوي، انطفأت الضحكة وتاهت عينه في الدخان الأزرق وهو يردد في داخله، ربما الرابطة التي تجمعنا هي رابطة الرأس الشيطانية، لقد كشفت سرك يا صديقي لكن أنت حتى الآن لا تعرف إنني أصبحت شريكاً معك وقريباً سيكون على ذراعي التسجيل الرسمي، تأمل وجه «العسيلي» وهو يرص أحجار الشيشة التي أفرغها قبل حضوره، ولأول مرة يقفز إلى رأسه سؤال لم يدر لماذا لم يفكر فيه من قبل، من أين يأتي « العسيلي « بهذه الكميات الهائلة من الكيف، يعمر احجار الشيشة منها بكميات كبيرة دون حساب، أبداً لم يسأله أو يطالبه بأن يشاركه في ثمنها بالرغم من أنه يعرف أن المدفوع فيها ليس بالهين، ماذا يعمل «العسيلي» الآن حتى يدر عليه هذه المبالغ التي يبعثرها على الكيف؟!، ومتى يعمل ؟!

وهو لا يغادر جلسته بجانب الشيشة، منذ أن كان طبيباً وأُنهيت خدمته في المستشفى الذي يعمل به لأسباب لم يذكرها، لم يسمع أنه التحق بعمل آخر، أسئلة وأسئلة تدور في رأسه الآن

لأول مـــرة، اندهش كيف لم يفكر فيها من قبل، شـــيء طبيعي أن يكون الســـبب هو المعلومة التي شقت عقلة المرة السابقة بأن «العســـيلي» يعمل أيضاً مع الرأس الشيطانية، انتبه على صفير كأنه عربة الإطفاء، العســـيلي يمد يده بالشيشة نحوه قائلاً :

- حدث كبير هو الذي ســـاقك إلىّ لثاني مرة هذا الأسبوع، أراهن على ذلك، خاصة وأنا أراقبك الآن ورأسك شاردة بعيداً لدرجة أنني أحســـت أيضاً أن جسدك شرد معها أيضاً ولم تعد معي في نفس الحجرة .

حـــاول «مـــروان» أن يطمس ملامحه التي يبـــدو أنها كانت متوهجة أمام عيني «العسيلي» متخلصاً أيضاً مما كان بفكره، استجلب ابتسامة باهتة وقال:

- وما الذي سيشـــرد بفكري ســـوى المباراة النهائية وانتظار الجمهور لهـــا، لم يبق على موعدها ســـوى أيام قليلة .

قهقه «العسيلي» قائلاً :

- وهل هذا ما ســـاقك للحضور اليوم، هلى اعتادت قدمك على بركة الكيف ؟!

أجاب «مروان» بذهن شارد وابتسامة باهتة :

- ولماذا لا، جميع المباريات التي سبقتها بركة الكيف انتعشت فيها قدمي وأطلقت صواريخها .

توقف لسان «العسيلي» عن الحديث ولم يبق في وجهه إلا عينان تحملقان في حجر الشيشة، لم يعرف «مروان» إن كان احمرارهما هو انعكاس جمهرة الفحم أم علامة الوصول إلى قمة التحليق مع الدخان الأزرق، ود لو كانت الأخيرة، يسأل نفسه، هل سيرقد «العسيلي» طائعاً أم الرأس الشيطانية هي التي ستتولى هذه المهمة كالمرة السابقة، لكن ما أدراني أن الرأس الشيطانية ستبادر بالحضور الليلة، في آخر مرة قالت له أنه في أي وقت يحضر ستكون حاضرة معه، من المؤكد لن يحدث هذا إلا بعد أن يطلق «العسيلي» شخيرة الذي يضرب السقف، هو يعلم سر العسيلي، لكن العسيلي لا يعلم سره كما أخبرته الرأس الشيطانية، إذاً من البديهي لن تحضر إلا بعد رقاده، دقائق وتأتي جرعات الكيف المركزة مفعولها، لا يعرف كيف تزيدها له الرأس الشيطانية لتدخله في نعاس عميق، حاول «العسيلي» النهوض وقد يكون للذهاب إلى دورة المياه لكنه عدل عن رأيه ويبدو أن العدول كان إضطرارياً إذ سرعان ما مال على جنبه وهو يرسل ابتسامة نحو «مروان» وقبل أن تنطفيء كان جفناه قد ارتخيا ليغلقا باب الاستيقاظ .

تنفس «مروان» الصعداء، شـــدد من أنفاس الشيشـــة لتزداد محدثة قرقرة رتيبة وكأنه تنبيه أو دعوة للرأس الشيطانية بأنه جاري إعداد فراش كثيف من الدخان الأزرق لتســـتريح فوقه، وأن المكان يســـتعد لاســـتقبالها وأن «العسيلي» غادر اليقظة إلى نوم ثقيل كالجبال وشـــخيرة يكاد يجذب من في الطريق، على قدر ما كان مشتاقاً لاســـتقبال الرأس الشيطانية كانت كل أفكاره تتلوى مع أمعائه خشية هذا اللقاء، يخشاه خشية المتهم بالقتل وهو ينتظر ما ستنطق به شفتا القاضي، بل أشد وألعن فالقاضـــي قد يتفهم موقف الجاني ويطبق روح القانون ويحكم بسجنه وليس بحبل المشنقة، أما الرأس الشيطانية بالتأكيد لا تعرف روح القانون وتنطق بأقصى عقوبة، الم تقل له أن «سمية» ســـيكون مصيرها الموت إن لم ترضخ وتسجل نفسها ضمن قائمة الاتباع، يا ترى كيف ســـيعود الليلة إلى «سمية»، هل سيعود وفي يده الحكم بإعدامها، يجب أن يعـــود وفي يده حكمين، أحدهما بإعدامه أولاً .

أتت المواجهة وتربعت الرأس الشيطانية فوق الوسادة الدخانية الزرقاء المريحة إلى أعدها «مروان» بســـخاء، قالت وابتسامة تاه «مروان» في تفسيرها:

- هل أنتما مستعدان للسفر إلى النوبة لوشم «التاتو» ؟

أجاب مروان متلعثماً :

- أنا فقط الذي سأذهب .

سألت الرأس الشيطانية بهدوء :

- وماذا عن زوجتك «سمية» ؟ .

أجاب «مروان» وهو لا يزال في تلعثمه :

- حدث ما كنت أتوقعه ورفضت رفضاً تاماً وطالبتني بالطلاق .

أجابت بصرامة بدأت تتكون :

- ليس لديها فرصة للخيار، إما القبول أو الموت .

تحول «مروان» إلى الرجاء :

- وهل من العدل أن تُقتل الأم وجنينها ؟!

فوجئت الرأس الشيطانية وسألت :

- هل زوجتك تحمل داخل أحشائها جنيناً ؟

أجاب مروان والرجاء اختلط بالأمل :

- نعم لم أعرف بهذا إلا بعد عودتي من لقائنا السابق وعرضي عليها «التاتو» للانضمام معنا .

صمتت الرأس الشـــيطانية برهـــة كانت كالجبل في ثقلها وقالت :

- لكي تعرفوا يا بني البشـــر إننا أيضـــاً نعرف معنى العدل، سأتركها حتى تضع مولودها بشـــرط أن تمنحها الطلاق، لن تعدما كيف تبررانه، لكن يجب أن تحذرها بأن تنســـى كل ما رأتـــه وسمعته، وأن تقطع صلتك بهـــا تماماً حتى لا تعرف أي شـــيء مما ســـيحدث بينك وبيننا منذ الآن ثم أردف بصرامة :

أرجو ألا تفعلا ما يعيدني إلى قراري الأول بموتها، ســـأترك لـــك فرصة لكل هذه الأمور، على أن تكون هنا بمجرد الانتهاء منها للتفرغ لنا، سنراعي بالطبع أوقات انشغالك بالملعب، المرة القادمة تكون مستعداً للسفر إلى النوبة .

سأل «مروان» كتلميذ يسأل أستاذه عن العقاب :

- هل عملي معكم ســـيكون مرتبطاً بمـــدة أي كعقد عمل تنتهي مدتـــه بانتهاء التعاقد ؟

ابتسامة كريهة حطت فوق شفتيها وأجابت :

- أنت تسأل الآن بنية معرفة موعد إطلاق سراحك كسجين ينتظر انتهاء مدة ســـجنه بفارغ الصبر، تذكر هذا، لأنك غداً ستســـأل نفس الســـؤال بنية الاطمئنان بأننا لن ننهي عملك

معنا، أنتم البشر لا يهمكم في الحياة سوى المال والشهرة والمتعة الجنسية، هذا هو حالكم منذ البداية، وبما أنك واحداً من هؤلاء البشر ستتمنى وتأمل أن تبقى معنا للنهاية، لأن كل ما تصبوا إليه في هذه الثلاثية سيتحقق لك من أوسع الأبواب وبطريقة لا تحلم بها، لا تظن أنه بطلاقك لزوجتك أنك ابتعدت أو فقدت الجنس، سترى وتقابل أنواعاً وأشكالاً من النساء وتتمتع معهن بما ينسيك آلاف الزوجات أو كل ما فعلته في ماضيك وحاضرك وأنت تظن في نفسك الفارس المغوار، لا تتعجل وافعل ما يطلب منك وكن عوناً لنا ولن تندم لحظة واحدة .

حانت منه نظرة نحو «العسيلي» وهو يغط في نومه، سؤال حائر قفز فوق شفتيه

- ما تقوله الآن عن الشهرة والمال ومتعة الجنس لا أرى منه أي ظاهرة فوق صديقي «العسيلي» وأنت كما تقول يعمل معكم ؟

كادت الابتسامة الكريهة تقفز إلى مستوى الضحكة وقال :

- أترك صديقك «العسيلي» الآن فهذه قصة أخرى ستعرفها من بعد .

قال «مروان» وهو ينظر بشفقة نحو «العسيلي» :

- أرجو أن تكون قصة سعيدة فله في نفسي مكانة كبيرة .

قالت الرأس الشيطانية :

- كل مـــن يعمل معنا يعيش قصة ســـعيدة وكل واحد له متطلباته ثم أردف : هيا لتعود إلى زوجتك، أعتقد أنها تنتظرك علـــى أحر من الجمـــر، أرجو أن تقول لهـــا أن هديتنا يجب أن تحتفظ بها وتضعها أمام عينيها دائماً حتى تذكرها بأن تكون صامتة وتنســـى كل ما رأته، هل لديك ما تود الاستفهام عنه حتى موعد انطلاقك للنوبة .

أجاب مروان وفوق شفتيه ابتسامة آسفة :

- أعتقد أنه من السهل الآن أن أجدك لو احتجت إليك .

١٢

لم يصدق أن قرابة ثلاثة أشـــهر قد مرت منذ آخر مرة كان فيها مع الرأس الشيطانية، عاد ليلتها ووجد زوجته «سمية» كما لـــو كانت ترقد فوق الجمر كما قالت له الرأس الشـــيطانية، طوال الطريق أثنـــاء عودته والأفكار تتجاذبـــه في كل اتجاه، نعم ســـينقل لها الخبر المفرح بأنها لن تموت ولن تمتد إليها يد الرأس الشيطانية ولا لجنينها، لكن ما هو المقابل، مقابل كريه كالموت، كيف يطيق أن يبتعد عن حبيبته «سمية» وطفله الذي لم يرَ النور بعد، كيف سينسى الأيام التي نهل فيها من السعادة كما لم ينهل أحد ســـواء خلال فترة الخطوبـــة أو بعد الزواج، كيف سينســـى «سمية» ومزحاتها التي كانت تدخل السرور إلى قلبه من كل الأبواب، كيف سيجرؤ لسانه على النطق بأبغض الحلال «أنت طالق» ماذا ســـيقول كل من حوله، ماذا ســـيقول جمهوره، ستتقاول الألسنة كثيراً، خلل ما لا بد أن يكون حدث

بينهما أدى إلى الطلاق، بماذا سيفسرون هذا الخلل ومن المسئول عنه، الناس لا تترك من حولها في حالهم، من المؤكد أن كل واحد سيفسر الموقف من زاويته الشخصية، فكرة قفزت إلى رأسه أودعت مرارة العلقم في فمه، « سمية « أجمل من الجمال، لا تزال شابة صغيرة، سيتوافد على بابها الرجال بالأفواج لخطب ودها والزواج منها، كيف سيطيق أو يتحمل أن تكون «سمية» في حضن غيره، أحس بأنه يريد أن يتقيأ كل هذه الأفكار ويستيقظ ويجد أن الموضوع كله مجرد حلم .

عندما وصل إلى المنزل واستقبلته سمية قرأت فوق وجهه عذاب لا يتحمله بشر، جذبته إلى حضنها ودموعها تعلن عن عذاب أكثر لهيباً من عذابه، همست من خلال دموعها :

- لا تنطقها، أرجوك لا تنطقها، أموت أنا وجنيني أفضل من أسمع كلمة « أنت طالق « تخرج من فمك يا حبيبي .

أبعدها عنه قليلاً ورأت داخل عينيه لهيباً يعكس لهيب داخله وقال :

- من قال لك إنني سأنطقها، أفتك بروحي ولا أنطقها، لا أستطيع، النيران تشتعل في كل أفكاري ولم تترك لي سوى الرماد الذي لا يصلح لأن ينجب فكرة واحدة أستطيع أن أبعد بها هذا الكابوس عن حياتنا، لست أعلم أي شيطان أغواني لأقبل

به منذ البداية، ضمها إلى صدره بشدة وكتمت آهة، قبلها بنهم وشـــراهة وكأنها عشـــيقة تكاد ترحل عنه وتتركه يعيش على ذكرى أيامه السابقة، أحست بأنفاسه اللاهثة الساخنة تنطلق وتكاد تشـــوي جلدهـــا، اختطفها كمغتصـــب إلى غرفة النوم، اســـتكانت بين ذراعيه وخلجات جسدها تقول إنها من المستحيل أن تتخلى عنه أو تتركه كما قالت خلجات جسده بالضبط .

اتخذ قراره، لن ينفصلا ولن يذهب ثانية إلى «العسيلي» حيث تكون الرأس الشيطانية متوسدة الدخان الأزرق، لو أرادت أن تأتي إليهما فلتأتي وسيصرخ في وجهها بأنه لن يرضخ لها، لم يشأ أن يصارح «سمية» بما تولد في رأسه بأن الرأس الشيطانية في حالة رفضـــه قد يمتد أذاها إليه شـــخصياً وتتركها وفي هذه الحالة يكون قد أنقذها وطفله .

غسل الماضي من رأسه وقرر أن يبدأ من جديد، أحس بانتعاش داخله وأقبل على ســـعادة حُرم منها منذ فترة ليست بالقصيرة والرأس الشـــيطانية تظهر له مع كل خطوة، أقنع نفســـه بأن إصراره على الرفض قد يثني الرأس الشـــيطانية على ملاحقته وتتركه وشأنه، لاحقت الأيام بعضها وبدأت مظاهر الحمل على سمية وازدادا سعادة عندما أخبرهما الطبيب أن المولود ذكر وأنه أوشك على المجيء، تحاشى تماماً ذكر الرأس الشيطانية أمام

«سمية» وإن كانت الأفكار تناوشـــه أحياناً مع دهشة يكتمها في داخله متسائلاً عن صمت الرأس الشيطانية هذه الفترة الطويلة التي قاربت على ســـتة أشهر، لم يتغير أي شـــيء من أحواله بل ازدادت البهجة في المنزل وهو يحقق النجاح في كل المباريات التي لعبها خلال هذه الفترة وأصبح اسمه بين نجوم الســـماء، يضع كفه فوق بطن سمية الكروية ويقول ضاحكاً بأن هذا ينبيء بأن هذا الطفل سيكون امتدادا لقدم أبيه في الملعب .

ذات يوم تذكر «العسيلي» وأحس بالاشتياق إليه، ماذا سيقول عنـــه، من المؤكد أنـــه يقرأ أخبار نجاحاتـــه في الصحف، من المؤكد أن الدهشـــة تلعب دورها داخل فكره، أبداً لم ينقطع عنه هذه الفترة الطويلة، ستة أشهر لم يذهب إليه ولم يشد الأنفاس الزرقاء، اشتاق إلى حلقات الدخان الزرقاء وأحاديثه مع صديقه خاصة بعد أن يبســـط الكيف نفوذه على رأسيهما، ماذا لو ذهب إليه وســـأل عنه، هل يمكن أن تظهر له الرأس الشـــيطانية فوق وسادة الدخان الأزرق وفي هذه المرة لن تتركه حتى يسجل نفسه ويحتل «التاتو» أعلى ذراعه كصديقه «العسيلي»، لكن ما الذي حدث، كيف لم تأت إليه الرأس الشـــيطانية كما كانت تأتي إليه في مرآة التسريحة أو فوق عارضة المرمى، الموضوع أصبح لغزاً محيراً، «العســـيلي» أبداً لم يأت إليه أو حتى هاتفه، يتركه حتى يذهب إليه ويستقبله كل مرة بالضحكات والمزاح وأبداً لم يعاتبه .

قرر أن ينسى مؤقتاً كل ما يتعلق بأمر الرأس الشيطانية ولن يذهب إلى «العسيلي» الآن، الأمور تسير في هدوء، فلماذا ينبش في الرماد، ليترك الأيام تكشف عما بجعبتها، ليترك هذه الأفكار الآن ويعيش أيام سعادة لا توصف، هو وسمية يترقبان الصباح والمساء في لهفة في انتظار المولود .

جاء المولود وامتلأت الأيام بالبهجة والسعادة، الجميع احتفلوا به حتى جمهوره لم يتركه دون مداعبة، الجميع قالوا عنه أنه مُبخت فالهدايا التي امتلأ بها المنزل يمكن أن تهدى لدستة من المواليد، «مروان» قال في داخله أن هذا الطفل مبروك فمنذ الإعلان عن قدومه اختفت الرأس الشيطانية ولم تعد تطارده ولم تلحق الأذى به أو بزوجته كما كانت تهدد، لكن هذه الفكرة لم تنسحب تماماً من رأسه، تأتيه دائماً بل أحياناً يحلم بها، دائماً يردد في داخله أن الشيطان من المستحيل أن يفلت فريسة بسهولة، يحاول أن يطرد الفكرة من رأسه بكل قوة وهو يردد في داخله «اللي يخاف من العفريت يطلعله»، دع الأمور تسير ولا تتعجل، قد تكون وجدت فريسة أفضل منك وتركتك لأسرتك .

الشيطان لا يفلت فريسته بسهولة كما قالها «مروان»، أتت الرأس الشيطانية بابتسامتها الكريهة، هل هي حقيقة أم خدعة

بصرية، في القاعة التي يحتفلون فيها بقدوم المولود وكما يطلق عليه «السبوع»، انحنى الجرسون النوبي أمامه قائلاً: مبروك يا كابتن، كاد أن يصعق، رأس الجرسون النوبي لم تكن سوى الرأس الشيطانية بابتسامتها الكريهة، انسحب الجرسون النوبي سريعاً ..

١٣

أفســـد عليه فرحة الليلة، فرحة الاحتفـــال الكبير بمولوده الأول، حاول «مروان» أن يتهم عينيه بعدم الرؤية الصحيحة، قال أن الوهم قاده إلى تخيل الرأس الشـــيطانية وقد حلت محل رأس الجرسون النوبي، قال ربما فكره المنشغل دائماً بها وقد مرت فترة طويلة ولم يبادر بالذهـــاب للقائها وهي بدورها لم تأت إليه، هو الذي ســـاق الخيال ليصورها له في وجه الجرسون النوبي، لكن لماذا تقمصت وجه هذا الجرسون النوبي؟!، لماذا لم تأت إليه كما اعتادت من خلال مرآة التسريحة أو لتطل عليه من فوق عارضة المرمى، ما علاقتها بهذا الجرســـون النوبي، قفزت إلى رأسه فكرة مجنونة أن يمسك بتلابيب هذه الجرسون ويسأله ما علاقته بها لكنه خشى العاقبة وقد يثير فضول الأنظار، خشى على «سمية» لو علمت، قرر الانتظار لكي تمضي الليلة بســـلام ثم يذهب في الغد إلى مدير القاعة ليسأله عن الجرسون النوبي متزرعاً بأي حجة . انتهت الليلة بخير وعاد هو وزوجته وطفلهما إلى المنزل،

نظر خلسة إلى وجه «سمية»، رأى أفراح العالم كله ترقص داخل عينيهـــا، الفترة الطويلة التي مرت في هـــدوء دون تطفل الرأس الشـــيطانية أنستها ما سببته لهما من آلام وأصبحت ككابوس مضى وانتهى ولن يعـــود ثانية، عندما سمع تغريدات ضحكتها مع طفلهـــا اطمأن علـــى أن وجه الجرســـون النوبي لم يتغير ســـوى أمامه فقط ولم تصطدم «سمية» ببشاعته، قرر في داخله أن يحتفظ بهذه الرؤية لنفســـه، بات ليلته مسهداً، تكرر حلمه بوجه الجرســـون النوبي الذي تحول أمام نظره إلى وجه الرأس الشيطانية البشع .

انتظر ضوء الصباح بفارغ الصبر، لم يتوان لحظة في أن تجري بـــه خطواته إلى الفندق الذي احتفل في إحدى قاعاته بمولوده، شـــهرته ساعدته أن يسأل عن الجرسونات الذين كانوا يعملون بالقاعـــة ليلة الأمس، قال له المدير أن ليس كل الجرســـونات يعملون بالفندق بصفة مستديمة، أحياناً عندما يكون الضغط فوق المألوف يستعين الفندق ببعضهم بصفة مؤقتة للخدمة في قاعات الاحتفالات، سأله مروان من أين يأتون بهم، اجابه المدير بأنه توجد مقهى في منطقة وســـط البلد، هناك يجلس المتعهد بالإمداد بالجرســـونات، بحكم شهرته لم يبخل المدير عن إمداده بكل المعلومات عن هذا المتعهد .

من الفنـــدق إلى المقهى ألهبت ســـيارته الطريق وكل أمله أن يجد ضالته، هذا الجرســـون من المؤكد أنه خلف حكاية لا يعلمها سوى الله، كيف تبدل وجهه إلى وجه الرأس الشيطانية وهـــو ينحني أمامه ليقدم له كوب الشـــاي، من المســـتحيل أن يكون وهماً، كاد وجه الجرســـون أن يلامس وجهه وكأنه كان يقصد ذلك، قفز إلى رأسه قول الرأس الشيطانية بأنه يجب أن يذهب إلى «النوبة» لعمل الوشم «التاتو»، هل هناك ما يربط بين الذهاب إلى بلاد النوبة وهذا الجرســـون النوبي، لم تهدأ أفكاره حتى توقفت السيارة أمام المقهى .

لم يخف وجهه على زبائن المقهى، اســـُتقبل استقبالاً حافلاً يليق بســـاحر الكرة كما يلقبونه، بالكاد تخلص من كرمهم، الجميع يريدون أن ينالوا شـــرف دعوته والجلوس معه، صاحب المقهى ســـارع بإحضار المتعهد أمامه، ضحـــك المتعهد عندما سأله عن الجرســـون النوبي وأجابه بأن العديد من الجرسونات النوبيين يعملون معه، ضاقت المسافة عندما حدد «مروان» طلبه بأنه يبحث عن جرســـون نوبي كان يخـــدم في قاعة «كذا» في فندق «كذا» بالأمس، انتهى تفكير المتعهد على أن أفضل وسيلة للاســـتدلال على هذا الجرسون هو أن يحضر «مروان» في المساء إلى نفس المقهى، لأن كل الجرســـونات الذين يعملون بالطلب يتواجدون بالمقهى، وأن الحظ سيخدمه وسيعثر على ضالته لأن

اليوم الاثنين وغالباً ما يحضر جميع الجرسونات؛ لأن الحفلات تكون قليلة لأن أغلب الحفلات تتركز في عطلة نهاية الأسبوع وقليلاً منهم من يعمل خلال أيام الأسبوع، عاد إلى المنزل ورأسه مشحونة بلقاء هذا الجرسون، لاحظت «سمية» شروده وسألته، تخلص بسهولة من سؤالها بأن ما يشغله هو المباراة التي لم يبق عليها سوى أيام وأن الجمهور ينتظر منه الكثير في هذه المباراة، ضحكت وأشارت نحو طفلها قائلة بأن وجه «مروان» الصغير سيجلب له الفوز، حاول أن يُجبر ابتسامة أن تحط فوق شفتيه، سرعان ما تلاشت وقد أعاد ما قالته عن وجه الصغير إلى ذهنه وجه الجرسون المتحول إلى الرأس الشيطانية فأحس بوخزة شديدة أعادته إلى الواقع وأن عليه أن يصل إلى هذا الجرسون في المساء .

كان بالمقهى في موعده بالضبط، قفز المتعهد نحوه بالترحاب وهو ينظر حوله متباهياً بأنه على صلة بنجم الكرة، قبل أن ينطق المتعهد كانت عينا «مروان» تجوبان المقهى بالكامل، الكثير من الوجوه النوبية السمراء، في الجولة التالية استقرت عيناه على وجه لا يمكن أن تخطئه عينه، وجه الأمس الذي حطت عليه الرأس الشيطانية، حاول أن يضبط أعصابه حتى لا يجذب الأنظار إليه، صافح المتعهد واضعاً في يده ورقة مالية كبيرة، اقتنصها وهو يبدي بعض التمنع، قال له تحت الأمر دائماً ياباشا بطريقة كما لو كان يود أن يقول له أنه لو أراد كل

رواد المقهى لوضعهم في جوال وألقاهم داخل سيارته، لكن مروان لم يكن يريد سوى الجرسون الذي كان يشد أنفاس الشيشة بنهم، مطلقاً حلقات الدخان الزرقاء بكثافة لدرجة توهم معها «مروان» أن الرأس الشيطانية ستحط فوق هذه الوسادة الدخانية كما يحدث في منزل صديقه «العسيلي»، انطلق المتعهد سريعاً ليستدعي الرجل الذي أشار نحوه «مروان»، ما كاد الجرسون النوبي يقترب ويلمح وجه مروان حتى انقلبت سحنته وأخفت سمرته الداكنة تلونها بصبغة قانية الاحمرار، توقف الرجل وكأنه يود الهرب لكن المتعهد أمسك بيده وهو يسحبه قائلاً في أذنه إنه شديد الحظ فمن المؤكد أن نجم الكرة سيكرمه كما أكرمه هو، قال له هيا يا رجل لقد أتاك الرزق ليعوض تعطلك عن العمل اليوم، اقترب الرجل من «مروان» محاولاً أن يضع شبه ابتسامة فوق شفتيه، صافحه مروان وبادر الجرسون النوبي بسؤاله محاولاً أن يسبر غوره.

- أي خدمة ياباشا

نظر مروان نحو المتعهد وفطن الرجل أن مروان يريد أن ينفرد بالجرسون فاستأذن وعاد إلى مجلسه لكن عيناه لم تفارقا المشهد الذي أمامه، قال مروان محاولاً أن يطلق لسان الرجل:

- هل أنت من النوبة ؟

قال الرجل وهو يحاول أن لا تبدو رعشة نبراته :

- نعم، النوبة وأهل النوبة تحت أمرك ياباشا .

سأل مروان وكأن سؤاله أتي بعفوية :

- سمعت من البعض أن أهل النوبة يجيدون صناعة الوشم ببراعة .

فطن الجرسون أن «مروان» يستدرجه وقفزت في رأسه فكرة الهرب بأي ثمن وفطن «مروان» بما يدور في رأسه من نظرة عينيه فأمسك بذراعه وقال له بلطف: لماذا لا نذهب إلى مكان هادىء لنتحدث فأني أريدك لأمر قد يعود بالنفع الكثير عليك، تحت قبضة مروان الحديدية سار معه «الجرسون» وانطلقا بالسيارة، توقفت السيارة وابتسم «مروان» مشجعاً ليعطيه بعض الثقة زادها بوضع بضعة أوراق مالية في جيب قميصه، قبلها الجرسون شاكراً وسأله بعد أن زاد من ابتسامته :

- بالتأكيد أنت تعرف اسمي لكن أنا حتى الآن لم أتعرف عليك !!!.

أجاب الجرسون محاولاً أن يُظهر ابتسامة كشفت عن أسنانه البيضاء :

- خدامك «الجعفري صالح» .

- هل تعمل في هذه المهنة منذ فترة طويلة يا عم « الجعفري « .

- هذه مهنتي أباً عن جد يا بيه .

رأى «مروان» أن يقفز إلى السؤال الذي يبحث عن إجابته ففاجأه سائلاً :

- هل تعرف الرأس الشيطانية منذ فترة طويلة ؟!

تلقى «الجعفري» السؤال وكأنه طعنة، وضع يده على مقبض الباب بسرعة وفتحه وقبل أن تطأ قدمه الطريق كانت يد مروان قد جذبت بسرعة وبكل قوة كم قميصه من أعلى ورأى إجابة ما كان يسعى إلى معرفته فوق ذراع «الجعفري»، رأس شيطانية موشومة أعلى ذراعه كالرأس الموشومة على ذراع صديقه «العسيلي»، الاختلاف الوحيد ولأن بشرة «الجعفري» سوداء الوشم كان مرسوما باللونين الأحمر والأخضر، ترك «الجعفري» قطعة من كم قميصه في يد مروان وقفز إلى الطريق وأطلق ساقيه للريح، شاهده «مروان» وهو يلقي بالنقود التي وضعها في جيبه على الطريق .

لم يتحرك «مروان» من مكانه ولم يفكر في مطاردة الرجل فعلى الأقل عرف ما كان يسعى إلى معرفته، اتقدت شعلة أفكاره، أفكار بالجملة، أولها أن الرأس الشيطانية لم تتخل عنه

أو نسيته كما كان يظن هو وزوجته بعد أن خمدت هذه الفترة الطويلة، لماذا تخلت عن أسلوب ظهورها فوق مرآة التسريحة وفوق عارضة المرمى واستبدلتهما بوجه «الجعفري»، هل هذا إنذار لتنبيهه أنه آن الأوان لكي يخضع ويذهب لملاقاتها في منزل «العسيلي» لتوجهه إلى كيفية الذهاب ليوشم «التاتو» فوق ذراعه، هل سيصارح «سمية» بهذا التطور الذي سيهدم سعادتها التي كانت تشع من كل خلية في جسدها، هل سيقول لها «أنت طالق» ليحميها من أذى الرأس الشيطانية، الشعلة لم تهدأ ولم تنطفيء وعاد إلى المنزل وهي لا تزال متّقدة بشدة، ما إن رأى وجه زوجته وطفله حتى أخمدها عنوة، وضع ابتسامات العالم كله فوق شفتيه وقرر ألا يفوه بكلمة واحدة، عليه أن يطيل أمد سعادتها على قدر ما يمكنه، فلينتظر ويفكر أولاً، لن يخبرها حتى يضيق الأمل ويصبح كثقب الأبرة كما كان يضيق المرمى أمامه قبل أن يتعاهد مع الرأس الشيطانية .

قضى ليلته مسهداً تكاد لا تغفو عيناه حتى يهب منزعجاً ويتجه بصره إلى مرآة التسريحة فقد تظهر الرأس الشيطانية كسابق عهدها للاستدعاء أو التحذير من عصيانه أو كتوبيخ على ما فعله مع أحد أتباعها وكيف كشف سر «الجعفري»، حاول أن يطرد كل الأفكار من رأسه، استيقظ مع «زوجته» عندما

نهضـــت لتلبية نداء الطفل من أجل الوجبة التي حان موعدها، ابتســـمت «سمية» وقد ارتســـمت الســـعادة فوق وجهها قائلة :

- المرة الأولى التي تستيقظ معي ثم أردفت ضاحكة هلى نويت أن تتبادل إرضاعه معي .

ضحك «مروان» قائلاً :

- ليتني أستطيع، لكن هذه المهمة اختص بها الله الأم لحنانها، ثم أردف ضاحكاً، رأيت أن أستيقظ تضامناً معك في الأرق الذي يسببه لك هذا الطفل النهم إلى ثديك .

- هذا الأرق بالنسبة للأم هو أرق السعادة، وهي ترى فم طفلها يمتص غذاءه .

اقترب «مروان» منها وقبل رأسها قائلاً :

- حفظك الله أنت وطفلنا الجميل، أمســـك بدمعة كادت أن تروي رأسها .

قالت «سمية» ضاحكة :

- المباراة اقتربت وســـيكون وجه طفلنا أمام عينيك فتسجل انتصاراً رائعاً ينتظره جمهورك.

قال «مروان» بخوف أخفاه وقد داهمته فكرة المرمى الذي يضيق كثقب الأبرة فقد تفعلها معه الرأس الشـــيطانية كعقاب له :

- بالتأكيد ســـأبذل مجهوداً مضاعفاً لأقول لطفلنا عندما يكبر أن المبـــاراة الأولى بعد قدومه كان لوجهه الجميل الفضل في عدد الأهداف التي سجلتها .

١٤

ظلت فكرة المرمى المنحصـــر في ثقب الأبرة تطارده حتى يوم المباراة، نزل إلى الملعب والخوف يطارد أعصابه، بمجرد أن سجل الهدف الأول ولم يضق المرمى واشتعلت المدرجات بالهتاف حتى اتقدت حمية الفوز في داخله، ســـجل هدفـــه الثاني وهو ينظر فوق عارضة المرمى ليرى إن كانت الرأس الشـــيطانية حاضرة للمباراة، تنفس جرعة كبيرة مـــن الراحة والاطمئنان عندما وجد العارضة فارغة وكأنها رفضت اســـتقبالها، انتهت المباراة والســـعادة تحمله فوق جناحيها بعد الفـــوز الكبير الذي أحرزه فريقـــه وكان له النصيب الأكبر فيه .

قال ل «سمية» هل رأيت وجه طفلنا كم هو جميل .

ضحكت «سمية» قائلة .

- وهل وجه أمه ليس جميلاً، أشـــعر بالغيرة الآن من طفلنا، كان الجمال مـــن نصيبي أنا وتحـــول الآن إلى هذا الخلبوص الصغير .

أحاطها بذراعيه وقبل رأســـها وللمرة الثانية يغلق على دمعة كادت أن تروي رأسها قائلاً:

- ستبقين أنت دائماً الجمال الأول والأخير في حياتي .

التفكير في الرأس الشيطانية وعودتها ثانية في وجه الجرسون النوبي طرد السعادة كلها من داخله لكنه حاول قدر جهده ألا تلحظ «سمية» شيئاً من الغمة التي هبت عليه فجأة، لقد تأكد أن ما رآه على وجه «الجعفري» لم يكن وهماً أو خيالاً بعد أن مزق كم قميصه ورأى «التاتو» وأنه يحمل وشـــم الرأس الشـــيطانية على ذراعه، تلاعبت الأفكار داخل رأســـه أن كان يخبر زوجته أم يخفي الأمر ويكتمه داخلـــه إلى أن يرى الخطوة التالية للرأس الشيطانية، تلاعبت الأفكار أيضاً إن كان يظل كما هو أم يبادر بالذهاب إلى صديقه «العسيلي» حسماً للأمر، انتهى بقراره أن لا يبادر حالياً بالذهاب وأن ينتظر .

ما كان يثير دهشـــته هو الجرســـون النوبي، هل كان دوره فقط أن يظهر له الرأس الشـــيطانية، لماذا لم ينقل إليه رســـالة منها إذا كانت قررت ألا تأتي عن طريق مرآة التسريحة أو فوق

عارضة المرمى أو استبطأت ذهابه إلى صديقه «العسيلي» لتعطيه خط الســـير وكيف يصل إلى من سيوشم «التاتو» فوق ذراعه في النوبة، شيء محير بالنسبة له هذا الغموض، فكر أكثر من مرة أن يذهب إلى المتعهـــد ويأخذ منه عنوان «الجعفري» ويحاول أن يغريه بالمال لكي يحل عقدة لســـانه ويبوح له بأشياء قد تفيده، لكنه تذكر أن «الجعفـــري» لم ينس وهو يهرب أن يلقي بالمبلغ الـــذي وضعه له «مروان» على الطريق وكأنه يقول له لا تحاول معي بالمال مرة ثانية، نبـــذ فكرة الذهاب إليه وأوصد على كل الأفكار بل طردها من رأســـه، قرر أن يعيش ســـعادته مع زوجته وطفله ويـــترك ما قد يأتي به الغد حتى يأتي طائعاً .

سارت الحياة كما كانت تسير، «سمية» اندمجت تماماً مع دور الأمومة وأصبح طفلها هو شاغلها الوحيد ونسيت تماماً أحداث الماضي ولماذا تتذكرها وكل الأمور تســـير على ما يرام، بعكس «مـــروان» الذي كان يحاول أن يبعد فكره عن كل ما يمكن أن ينغص عليه حياته، إلا أن الفكر كان يغتصب رأسه اغتصاباً في بعض الأحيان، حتى بعد أن ابتدأ في التدريب استعداداً للمباراة الدولية مع إحدى الفـــرق الأجنبية، كان يعلم جيداً أن الرأس الشـــيطانية لن تتركه وأنها مسألة وقت فقط، ما يثير دهشته هـــو أنها لم توقع عليه أي عقاب حتى الآن رغم تمرده عليها، هل تتأنى ثم تضربه ضربة تقصم ظهره .

دق جرس الهاتف في منزله في إحدى الأمسيات ومن حسن حظه أن زوجته «سمية» كانت قد اصطحبت طفلها وذهبت إلى منزل أسرتها في زيارة كطلب الأب ليتآنس بحفيده، رفع سماعة الهاتف وأصابته دهشة أكبر وهو يستمع لصوت صديقه «العسيلي» يقول مازحاً :

- لم أكن أعرف أن نجوم الكرة أنذال ينسون الأصدقاء بكل سهولة .

قال «مروان» متعجباً :

- قبل أن أجيبك أسألك أنا ما الذي أوعز إليك أن تهاتفني الليلة، هذه المرة الأولى بالرغم من وجود الهاتف في منزلك .

أجاب «العسيلي» :

- نعم، أنت على حق، أعرف أنك بخير من أخبارك بالصحف، لكن أحسست أنه من واجبي الاطمئنان عليك فهذه المرة الأولى التي تتغيب فيها لهذه الفترة الطويلة، هل تعالت قدمك واستغنت عن بركة الكيف !!!!

قال مروان وهو يعلم جيداً أن مهاتفة «العسيلي» لم تكن محض صدفة :

- قـــد تتعالى قدمي وتســـتغني عن بركـــة الكيف، لكن من المســـتحيل أن أســـتغنى عن صديقي العزيز .

قال «العسيلي» وهو يدخل مباشرة في سبب مهاتفته :

- أريد أن أراك في أقرب فرصة .

أجاب «مروان» وقد تأكد من حدسه :

- سأحضر غداً فزد عدد الأحجار وأكثر من حشوها .

ترك الهاتف وهو يســـأل نفســـه، ما الذي يريـــده من أجله «العســـيلي»، هل من المعقول أن يكون الأمر له علاقة بالرأس ال شيطانية ؟!

جفا النعاس عينيه، اقترحت عليه زوجته أن يذهب إلى غرفة النوم الثانية ظناً منها أن بكاء الطفل هو الســـبب، أحســـت به يتقلب من جنب إلى جنب، أشـــفقت أن يؤثر الأرق على تدريباته للمباراة القادمة، قال لها أن صوت بكاء الطفل كأنغام الموسيقى في أذنه لكنه أمام الحاجة للاختلاء بنفســـه رضخ، كتم ما في صدره ولم يبح لها بأن ســـر أرقه يعود لمهاتفة صديقه «العسيلي» وأنها السبب في مجافاة النعاس لعينيه .

المـــرة الأولى التي يهاتفـــه فيها «العســـيلي» بالرغم من قدم صداقتهما، وما يثير الدهشـــة بل والخـــوف إلحاحه في أن يراه

سـريعاً، كان ينتظره دائماً مهما طالت فـترة البعد، يعلم أن «مروان» يمكن أن يتغيب عن زيارته لفترة طويلة لكنه في النهاية يأتـي ويدق بابه، خاصة بعد أن ارتبط بالـزواج، دعاه «مروان» كثيراً إلى مناسـباته لكن أبداً لم يلبي الدعوة، يضحك قائلاً : أن مناسـبة الكيف التي تجمعهما أفضل من أي مناسبات أخرى وأن رباط العنق يخنقه .

مهاتفة «العسـيلي» ودعوته للقائه يكمن بداخلها سر خطير، لكن ما هو هذا السـر ؟، يعرف أن «العسـيلي» موشـوماً بوشم الرأس الشـيطانية، لكن «العسيلي» كان يجهل تماماً أنه أيضاً على علاقة بهـا، وأنها ضيقت الخناق عليـه حتى تجبره على الانضمام إليها، حتـى الآن يجهل لماذا تريد أن تجبره على هذا الانضمام، بل يجهل تماماً الـدور المطلوب منه كما يجهل دور صديقه «العسـيلي»، غفت عيناه وتراءت لـه الأحلام تُخرج ما اختزنه عقله الباطن، مشاهد مفزعة تثير القشعريرة في جسده فينتفض وكأنه يرقد في الطل في ليلة شـتوية باردة فيسرع إلى جذب الغطاء فوق جسـده بالرغم من دفء الغرفة، يعود لغفوة ثانية وينقلب المشـهد إلى ذعر أقوى، انتفض واقفاً، تسلل بخفة نحو غرفة النوم التي ترقـد بداخلها زوجته وطفله، ألقى نظرة على وجه زوجته «سمية»، جميل وسمح حتى في نومها، إحساس أوقفـه عنوة بأنه يريد أن يقبله، لم يـرد أن يزعجها وقد حول

الصغير نومها إلى وجبات خاطفة، ألحت عليه كثيراً أن يستقل بغرفة نوم المسافرين حتى لا يتقطع رقاده ويؤثر على قدراته في الملعب، كان يرفض لكنه استصوب الفكرة هذه الليلة، لم تعلم أن أفكار الخوف قطعت رقاده أكثر من بكاء الصغير، لم تعلم أن مكالمة صديقه «العسيلي» قطعت رقاده وحتى الفترات التي يغفو فيها تسقيه المرار .

توجه إلى الشرفة وأطلق صدره لبضع جرعات من هواء الليل النقي، نظر إلى السماء وكاد أن يصرخ صرخة قد توقظ الحي كله.. إلى متى تتركني لهذا العذاب، لماذا لا تستجيب لي وتتركني لهذه الرأس الشيطانية تنغص حياتي وتحرمني حتى الفرحة بطفلي، عادت إلى رأسه صورة الجرسون النوبي وقد تحول رأسه إلى الرأس الشيطانية وأفسد عليه الاحتفال بمولوده الجديد، أطلق لسانه ببضعة ألفاظ يسب بها الرأس الشيطانية وكأنه يستفزها لتأتي ويدخل معها في عراك حتى لو انتهى بموته ليرتاح وقد تنقذ فعلته زوجته وطفله، عاد إلى الغرفة وهو يشعر بنشوة المنتصر وكأنه اكتسب معركة حقيقية .

١٥

دهشـــة غير عادية أحاطت بعقله، هل هذا هو بيت «العسيلي» أم أنه أخطأ العنوان، أبداً لم ينفذ من بابه إلى الداخل ولم تتنسم أنفه نســـمات الكيف، أبداً لم يدق باب شقته ولم تقابله موجات من الدخان الأزرق قبل أن يطالعه وجه صديقه، ابتسم العسيلي وهو يقرأ علامات التعجب فوق وجهه وقال :

- عن مـــاذا تبحث ؟!، إن كنت تبحث عني فأنا أمامك، وإن كنت تبحث عن الدخان الأزرق فلن تجده، أطفأت شعلة الشيشة اليوم خصيصاً من أجلك حتى أتفرغ للحديث معك.

قال «مروان» وهو لا يزال أسير دهشته :

- كنت أظن أنه يمكن أن ينطفيء قرص الشـــمس لكن أبداً لا يمكن أن ينطفيء حجر الشيشـــة في منزلك !! .

وقال «العسيلي» :

- صدقت، لكن للضرورة أحكام، الضرورة هي الحديث معك برأس لامعة أجبرتني أن أخمد أنفاس عشيقتي .

- أعتقد أنه حديث لا يخلو من الأهمية وإلا ما كان هاتفك دق في منزلي ولا فتحت نوافذ منزلك ليفر منها الدخان الأزرق !!

اقتحم «العســـيلي» الموضوع مباشرة وقال ونظرة عتاب تسبق كلماته:

- لماذا لم تخبرني ؟!

سأل «مروان» ببعض الحيرة :

- عن ماذا ؟

شمر «العسيلي» عن كم قميصه حتى وصل إلى منبت كتفه ليكشف عن «التاتو» وقال وهو يراقب وجه «مروان» :

- عن هذه !!

سأل «مروان» وقد بدأ الخوف يتسرب إلى داخله .

- كيف عرفت بأنني كشـــفت سرك ووقتها كنت تغط في النوم ؟

أجاب «العسيلي» :

- لم يخـــف علىَّ ما انتابك في الفـــترة الأخيرة وخاصة بعد زواجك ولأنك تهمني قررت أن أراقبك عندما تكون في نشـــوة الكيف، لم يســـتعص على فهمي بأنك وقعت تحت تأثير الرأس الشـــيطانية، هل تذكر يوم أن أمرتك بأن تعري كتفي لترى «التاتـــو»، لقد كنت مســـتيقظاً وسمعت كل شـــيء، الرأس الشيطانية كانت تظن أني أغط في النوم، لم تفطن بأن أحجار الشيشة التي كانت تظن أنها زادت من جرعة الكيف بها لتذهب بـــي إلى النعاس بدلتها كلها، سمعـــت كل أحاديثكما معاً، لا تتخيل كم الرعب الذي أصابني عليك وعلى أســـرتك، وقررت أن أفعل أي شـــيء حتى لا يصيبك مكروه .

سأل مروان :

- كيف وقعت أنت في حبائلها ؟!

أجاب العسيلي :

- دعك مني الآن وستعلم قصتي من بعد، كل ما أسعى إليه أن أخلصك أنت من حبائلها .

قال مروان :

- لقد كان أول لقاء لي بها في هذا المكان فلماذا ؟!

ابتسم «العسيلي» ابتسامة الحكيم وأجاب :

- المسألة ليست مسألة المكان أو الزمان، المسألة في التوقيت الذي تستطيع فيه القوى الشيطانية أن تخترق العقل وتسيطر عليه، ما أبدع الجنة التي كان يعيش فيها آدم مع حواء، كل شيء كان جميلاً حولهما ولا ينقصهما أي شيء، لكن القوى الشيطانية استطاعت أن تخترق عقليهما في الوقت الذي أفسح لها ضعفهما الطريق وكانت النهاية المعروفة .

القوى الشيطانية على الأرض تتحرك بحرية تامة في أي مكان وفي أي وقت، تراقب وتتابع وتتحين الفرصة التي يمكنها أن تخترق أي إنسان حتى لو كان قديساً، ذكاء القوى الشيطانية لا حدود له، تعرف أين منطقة الضعف في كل إنسان التي يمكنها أن تهاجمه من خلالها، الكثيرون يلومون الله في ما يصيبهم ويتهمون القدر، لو بحثت عن الحقيقة ستجد أن الإنسان يمكن أن يكون سيد نفسه ويمكن أن يكون عبداً للغير، ألا يقولون أن النفس أمارة بالسوء، هذه هي القصة، النفس واختيارها إما أن تسمو بك لأعلى أو تهبط بك إلى الجحيم، إما تفتح الباب للقوى الشيطانية فتمتطيها كدابة وإما تغلقه في وجهها وتصنع لها أجنحة فتطير مع الملائكة والكل يدور في فلك الله، هل أنت قريب أم بعيد ؟، هل أنت تريده أم لا ؟، هل أنت تثق فيه كمحب لخليقته أم ترى فيها المعاقب الذي ينتظر هفواتك ليعاقبك عليها فتفقد الرجاء وتنتقل من هفوة صغيرة إلى

الأكبر وفي النهاية تستسلم لكل أوامر القوى الشيطانية، الرأس الشـــيطانية ما هي إلا واحدة من هذه القوى .

قال مروان وقد لعبت الكلمات برأسه :

- لماذا اختارتني أنا ؟

أجاب العسيلي ولا تزال ابتسامة الحكيم فوق وجهه :

- ألم تفهـــم حديثي، أنت واحداً مـــن الألاف بل الملايين وأنا أيضاً مثلك الذين وجدت القوى الشـــيطانية أبواب نفوســـهم مفتوحة لها وشـــهيتهم تتلمظ عليها .

- إذا كنت تتحدث عن باب الشهرة بالنسبة لي فماذا عنك ؟!

- ألم أقل لك دعك مني الآن .

قال مروان متعجباً :

- كل الناس تبحث عن الشـــهرة وتحلـــم بها فهل الجميع فتحوا أبواب نفوســـهم للقوى الشـــيطانية ؟!

أجاب «العسيلي» :

- محبة الشهرة ليست خطيئة، لكن إسلوب الوصول إليها قد يدفع إلى الخطيئة .

- وما هي خطيئتي ؟!

- أنـــا لا أعرف ما هـــي خطيئتك، فقط أعـــرف أن الرأس الشيطانية عرفت طريقها إليك، وأنا لم أهاتفك من أجل هذا، لكن لأخـــبرك كي تأخذ حذرك .

سأل «مروان» بلسان الخوف :

- ممن آخذ حذري ؟!، وكيف علمت بالخطر الذي يترصدني ؟!

- الإجابة واحـــدة، بالتأكيد من الرأس الشـــيطانية، كان يمكـــن أن يقـــع عليك الخطـــر بالفعل أنت وأســـرتك، لولا تدخلي، أنت في مأمن حتى الآن، فلقد اســـتطعت أن أبعد شرها عنك وشـــللت قدراتها نحـــوك، « الجعفري « هذا الجرســـون النوبـــي الذي رأيتـــه في حفل ابنـــك كان مدبـــراً ليؤذيك لكني اســـتطعت أن أوقف شره فلم يســـتطع سوى أن يخيفك بوجهـــه الذي تحول إلى الـــرأس الشـــيطانية أمامك فقط .

قال «مروان» وقد تضخم خوفه :

- تقـــول بأنك أنت الذي تحميني من شـــرها، لن أســـألك كيـــف ؟ لأني أعلم أنك لن تجيبني على الأقل الآن، لكن يجب أن ترشـــدني كيف أتقي شرها؟

أجاب العسيلي :

- الخطوة الأولى احذر أن تذهب إلى النوبة لتوشم رأسها فوق ذراعك، إذا حدث هذا فتأكد أنه لا سبيل للتراجع عن أن تصبح تحت إمرتها، ستحدث محاولات لإغرائك للذهاب لعمل «التاتو»، احذر أن تضعف وتأكد بأنها لا تستطيع أن توقع بك الأذى، احذر أن تدخن الشيشة في أي مكان، حتى لو جئت إلى هنا ووجدتني أدخنها أخرج سريعاً، كن على اتصال معي دائماً وأخبرني عن أي تطورات في الموقف، سأبذل من أجلك ومن أجل أسرتك أقصى ما يمكنني أن أبذله . أدعو الله أن يخلصني من شباكها ولا تتردى أنت فيها

عندما تشتد الضغوط على العقل يترنح الفكر ويسير في كل الاتجاهات دون هدى ولا يعرف صحيحها من خطئها .

عاد «مروان» من لقاء صديقه « العسيلي » وعقله مسرحاً لكل المسرحيات المخيفة، تلعب كلها في وقت واحد، الشك في كل ما حوله حتى نفسه، ذهب شكه حتى إلى صديقه «العسيلي»، لم يكن شكاً، بل كيفه عقله في قالب الحقيقة، لماذا لا يكون «العسيلي» ورقة تلعب بها الرأس الشيطانية للإيقاع به ويصبح تابعاً لها، «العسيلي» أبداً لم يهاتفه فلماذا الآن ؟!

هل ليلعب معه دور المنقذ، ثم يسحب قدمه تدريجياً نحو الفخ، الفكرة أن صداقته للعسيلي ستعمي عينه عن الحقيقة، فيقوده

في الاتجاه الذي يريده بسهولة كطفل في يد أمه، نعم، نعم، هذه هي الحقيقة، يحذره من الرأس الشـــيطانية ويحذره من الذهاب إلى النوبة لعمل «التاتو»، ويطلب منه أن يكون على اتصال دائم به، كلها بهارات يضعها فوق طبق الثقة فتزداد وبعدها يمسك بلجام قيادته ويوجهه بذكاء ليجد نفسه غارقاً في بحر لا قارب يبحر فيـــه ولا طوق نجاة يغيثه، آه، هذه الرأس الشـــيطانية لا تتوقف عن ألاعيبها، انسحبت من مرآة التسريحة، ولم تعد تظهر له فوق عارضـــة المرمى وتركت له الفوز في المباريات حتى ازداد نجمه علواً وأفســـحت له ميدان الفراش ولم تقترب من رجولته، «الجعفري» ذلك الجرســـون النوبي وصديقه «العســـيلي» هما الأســـلوب الجديد الذي تتبعه لجذبه، حقاً الشيطان لا يكل ولا يمل ولا توقفه عوائق، كم من القصص نسمعها عن ألاعيبه في استمالة البشر، لكن ماذا يريد منه، حتى الآن لم يطلب أو يأمره بأي مهمة سوى أن يوشم ذراعه بصورة الرأس الشيطانية، سوى ذلك لم يكلفه بأي شـــيء يغضب الله، الرأس الشيطانية قدّمت له المســـاعدات، نعم مكرت به في الملعب والفـــراش لكنها أعادت كل شيء إلى أفضل مما كان عليه، آه يا «عسيلي» هل يمكن أن تنقلب صداقتنا إلى خدعة، بل خدعة دنيئة، هل نســـيت أحجار الشيشة ومزاح ما بعد التحليق في عالم الكيف، الموضوع لا يحتاج إلى ذكاء، نعم «العســـيلي» يلعب مع الرأس الشـــيطانية ضده.

لم يخبره أبداً ب «التاتو» الموشـــوم فوق ذراعه، لم يعرف به إلا بعد أن أمرته الرأس الشـــيطانية بـــأن يعري له ذراعه وهو يغط في نومه، لكن «العســـيلي» أخبره بأنـــه لم يكن نائماً وسمع كل أحاديثه مع الرأس الشـــيطانية، لماذا كشفت الرأس الشيطانية ســـر العسيلي أمامه وأن التاتو الذي على ذراعه هو الدليل على تبعيته لهـــا، أي لغز حقير الذي يلف أحبالـــه حول عقله، من يجلي هذا اللغز، إينشـــتاين بعقليته الرياضية ســـيقف عاجزاً أمام طلاسمه، من يســـتطيع أن يســـاعده، لا يستطيع أن يبوح لزوجته «سمية» بأن الرأس الشيطانية تناوره بطريقة أخرى، لن يستطيع أن يبوح لها بأن صديقه «العسيلي» قد انقلب ضده، عاد واســـتهول أن يكون «العسيلي» يعمل مع الرأس الشيطانية، لقد قال له أنه هو الذي حماه منها خلال الفترة الماضية وبالفعل لم تقترب منه ســـوى في حادثة «الجعفري» الجرسون النوبي، رأسه المشـــحون من قبل، ازداد بعد حديثه مع العسيلي، أصبح عاجزاً أن يضع حداً لشكوكه التي قد تذهب به إلى الشك في أن يكون طفله له علاقة بالرأس الشيطانية ولماذا لا تكون زوجته «سمية» أيضاً، خرجت قهقهته عنوة، نفض رأســـه بشدة وكأنه يحاول أن يطرد حالة من الجنون قد أصابته فجأة، هل هذا ما تســـعى إليه الرأس الشـــيطانية، أن تدفعه إلى حالـــة من انعدام الوزن فيرضخ لها طائعاً، إســـلوب جديد رأت أن تســـتعين في تطبيقه

بصديقه العسيلي، مرة ثانية عادت رأسه إلى «العسيلي»، أحاديثه مع الرأس الشـــيطانية كانت في منزله ومن خلال سحابة من الدخان الأزرق، إذاً لماذا أوصاه العسيلي بأن لا يقترب من الشيشة ومـــن دخانها، هل هو صادق في كل ما أخبره به،.

حـــاول أن يعيد عقله الفار بعيداً، قال له أنه يجب أن ينتظر، وأن يبعد كل الأفكار عن رأسه وأن يتفرغ تماماً للمباراة القادمة، الجمهور يرى فيه أســـطورة الكرة، بعـــض الصحف كتبت أن الجمهور يذهب من أجل قدمه فقط، وأن المباراة التي يتغيب عنها لأي سبب من الأسباب إيراداها يهبط إلى أقل من النصف، ناديه يعامله كقطعة من الماس يجب أن توضع في علبة من القطيفة، ماذا لو عادت الرأس الشيطانية فوق العارضة وحولت المرمى إلى ثقب أبرة، تعرف إنني أعبد الشهرة وأقيم لها الصلوات وإنني على اســـتعداد أن أفقد عيني على أن أفقد براعة قدمي التي وضعتني بجوار نجوم الســـماء وقد تكون لمرتبة أعلى، لا أعتقد أنها تلعب هذه اللعبة معي ثانية فقد أصل إلى مرحلة اليأس وأنزع نفسي من الملاعب قبل أن تنال غرضها وتفقد الســـلاح الذي تحاربني به، لا بد من أن يعمل عقلي بصورة جيدة وأخرج من أمام حائط المبكى، لا بد أن أجد الطريق الذي أصل به إلى الحقيقة، قفز إلى ذهنه «الجعفري» الجرسون النوبي، لماذا لا يغريه بالمال وقد يصل منه إلى بعض الحقيقة أو كلها، على الأقل قد يصل إلى معرفة

إن كان «العسيلي» معه أو ضده، تذكر المرة السابقة عندما ألقى «الجعفري» بالنقود التي منحها له على الأرض وهو يعدو مبتعداً، يقولون أن جميع الضمائر قابلة للشراء ولكل ضمير ثمنه ولن يكون ضمير الجعفري بأعف منها إلا إذا كان الأمر متعلقاً ببقاء عنقه فوق كتفيه، لماذا لا يجرب برزمة مالية تزيغ عيني أعف الضمائر، ليذهب إليه بعد مباراته القادمة، بضعة ورقات مالية تجعل متعهد الحفلات يرفعه فوق كتفيه ويطير به إلى باب منزل «الجعفري»، أن يلتقيه في منزله هذا أفضل .

١٦

زاغت عيناه وهما تنظران دسامة الرزمة الورقية، لم تمتد يده إليها وكأن الخوف يحكمها، الجرسون النوبي «الجعفري صالح» ومحاولة ثانية من «مروان» لاستمالته للوصول إلى إجابات لأسئلة يفكر فيها خلال صحوته ويحلم بها وتوقظه لتقطر في عينيه السُّهاد، كما توقع بالضبط، طار به متعهد الحفلات إلى بيت «الجعفري» بعد أن عمرت جيبه الأوراق المالية، لم يعرف لماذا أصر «مروان» على الذهاب إليه وقد ألح عليه أن يحضره له في أي مكان، حاول والفضول يقتله، لكن مروان تخلص منه بإضافة ورقة مالية جديدة إلى ما سبق .

لم يكن «مروان» يعلم أن «الجعفري» لم يتزوج وأنه يعيش أيامه مع العزوبية، قفز إلى ذهنه «العسيلي» وعزوبيته، لم يحاول أن يعقد مقارنة بينهما حتى يتفرغ انتباهه بالكامل إلى ما جاء بسببه، قاوم «الجعفري» نداء الأوراق المالية بشدة لكن مقاومته

ضعفت أخيراً، وامتدت يـــده كمغناطيس قوي والتقطت رزمة الأوراق ليودعها إلى جيبة كموظف حكومي مرتشـــي يخشـــى الرقابـــة، ثم قال بصوت حاول أن يعين به ضعفه :

- لست مطالباً بالإجابة عن كل ما تسألني !!

أجاب مروان بصوت ناعم حتى يكتسب ثقته :

- بالطبع أنت لست مجبراً .

- إذاً ابدأ سريعاً لأن وجودك هنا فيه خطورة عليك وعلىَّ!!

بالرغم من الخوف الذي داعب مروان قرر ألا يستفســـر عن مصدر الخطورة حتى لا يفقد الوقت جزافاً وســـأل مباشرة عن ما كان يحيره:

- هل لك علاقة ب « العسيلي « ؟

- نعم، هو أيضاً فوق كتفه الوشم .

- هل اتفقتما على محاولة اقناعي بالذهاب إلى النوبة لعمل «التاتو»؟!

هز «الجعفري» رأســـه قد تكون دهشة أو تأكيداً لكلماته قبل أن ينطقها وأجاب قائلاً :

- إطلاقـــاً، « العســـيلي » صديقك وهو تعـــرض لكثير من المخاطـــر في الفترة الســـابقة من أجـــل حمايتك !!

أحس «مروان» بوخزة تنفذ إلى ضميره لشكوكه نحو صديقه «العسيلي» وسأل متلهفاً :

- كيف ؟

أجاب «الجعفري»

- سأخبرك بما يخصني، لكن لا أستطيع أن أخبرك بالباقين، لقـــد كنت مكلفاً يوم الحفل بخطـــف طفلك لكن صديقك «العسيلي» شـــل قدرتي، وكل ما استطعته أن أخيفك بوجهي الـــذي انقلـــب إلى صورة الـــرأس الشـــيطانية . . هذا كل ما اســـتطعته، هربت بعدها، والباقي أنت تعرفه !

سأل «مروان»:

- بأي قدرة يستطيع صديقي «العسيلي» أن يفعل ذلك ؟!

أجاب «الجعفري» :

- لا أستطيع أن أجيبك عن هذا السؤال، لكن من الواجب أن أحذرك أنه لن يستطيع الاحتفاظ بهذه القدرة لوقت طويل وأن لها فترة محددة بعدها يبطل مفعولها !!

بدت فـــوق وجه مروان دهشـــة ممتزجة بالخـــوف وقبل أن يحولهما إلى كلمات، اقتحمت الغرفة امرأة نوبية لون بشـــرتها قـــارب التفحم، نظرت المـــرأة بعينين قاربت لـــون الدماء نحو «الجعفري» وهزت رأسها دون أن تنبس بكلمة ثم استدارت سريعاً مغادرة الغرفة تاركة الدهشة فوق وجه «مروان» وذعر لا يمكن وصفه فـــوق وجه «الجعفري» الذي انتفـــض واقفاً وكأن حية رقطـــاء قدطالت قلبه، وقال بصوت خافـــت لكن قوته تصل إلى بداية الصراخ والولولة وأصبعه يشـــير إلى الباب :

- اخرج . . . اخرج . . اخرج سريعاً وإلا ستكون نهايتي ونهايتك .

لم ينبس «مروان» بكلمة واتجه نحو باب الشقة طائراً ودهشة تعلو على سؤال داخله وهو يضع يده على مغلاق الباب ليفتحه، كيف تسللت العجوز إلى الداخل ؟!، قفز بضعة درجات في دفعة واحدة وكسلوك الخائف دائماً ألقى بنظرة إلى الخلف، انتفض جسده كقشعريرة المرض عندما شاهد العجوز ترمقه من أعلى بعينيها الحمراوين العينين، خوفه دفعه لقفزات أكبر إلى أن استقر خلف عجلة القيادة لينطلق بالســـيارة وأنفاسه تصارع بعضها .

طـــوال الطريق والمرأة النوبية المتفحمـــة تتماثل أمام عينيه ومحور دوران عقلـــه، نظرتها النافذة هي كل ما يتذكره، غاب عن ذهنه «العســـيلي» و «الجعفري» ولم يتبق في فكره سوى هذه

العجوز المخيفة، أي سلسلة هذه التي تزداد حلقة كلما حاول البحث عن أطرافها، ما سر الرعب الذي قبض على أنفاس «الجعفري» عندما شاهد العجوز وكأنها قابض الأرواح، لقد دفعه دفعاً ليغادر المكان حتى لا تكون نهايتهما، عقد تلتف على بعضها، تنفس الصعداء عندما تذكر كلمات «الجعفري» عن صديقه «العسيلي»، كلمات حكمت ببراءته، نخست ضميره نوبة من التأنيب لشكه في صديقه، أعلن في داخله أنه من الآن يجب أن يضع تحذيرات «العسيلي» أمام عينه، شعر بغصة عندما تذكر قول «الجعفري» بأن قدرة «العسيلي» على حمايته لن تستمر لوقت طويل وقد يبطل مفعولها قريباً، ثم ماذا؟، كيف سيواجه ألاخطبوطات الشيطانية لوحدة، وماذا سيكون من أمر «العسيلي» هل سيقف على الحياد أم سينقلب ضده، من المؤكد لا هذا ولا ذاك، قد يواجه عقاباً صارماً من الرأس الشيطانية وقواتها على اندفاعه وتطاوله وتجرؤه على مخالفتها والتصدي لحمايته منها، آه، قالها بكل مشاعره المشتتة في جميع الاتجاهات، أعاده بداية الشارع الذي يقوده إلى منزله إلى أنه يجب أن يسكن كل مخاوف داخله وأن يضع ابتسامة عريضة فوق وجهه حتى لا تشك زوجته أو تقرأ خوفه، فجأة قرر أن يدور بالسيارة عائداً إلى الطريق وقد داهمت رأسه فكرة الذهاب إلى صديقه «العسيلي»، فقد يستطيع أن يعيد إليه سكينته، المنغصات قررت ألا تتركه،

ماذا لو كان «العسيلي» قد علم بشكه نحوه، ماذا سيكون موقفه منه ؟، هدأ خاطره بأن «العسيلي» سيقدر موقفه، سيقول أن خوفه هو المسئول عن هذا الشك، أحس ببعض الارتياح عندما اقترب من بيت «العسيلي»، أوقف سيارته واتجه إلى الباب، صدمته رائحة دخان الكيف الذي اعتاد أن يرحب بها قبل أن يطرق الباب، تذكر قول «العسيلي» بأنه لو أتى في أي وقت ووجد المكان غارقاً في دخان الكيف الأزرق عليه أن يهرب سريعاً، عاد إلى السيارة وقد تصاعد ضيقه مرة ثانية، كان يأمل أن يجلس مع صديقه ويعتذر له عن شكه ويفضفض عن ما بداخله، يسأله عن المرأة التي أثارت فزع «الجعفري» والتي ودعته بنظرة تحمل الكثير من التهديد، قرر أن يجلس وحيداً في أي مكان لا تقف الحوائط حوله وتغلق عليه نسمات الهواء، انزوى في أحد الأركان المطلة على الماء، عندما أتاه الجرسون بكوب العصير الذي طلبه، نظر إلى وجهه الذي يحمل سمرة أبناء النوبة، كاد أن يسأله عن «الجعفري»، اندهش الجرسون من نظراته الحادة التي يوجهها نحوه والتي دفعته لأن يلتفت خلفه أكثر من مرة، ازدادت حمى الشكوك داخل «مروان» وأثارت هذه اللفتات مخاوفه، قرر أن يغادر المكان دون أن يحتسي العصير فقد يكون هذا الجرسون النوبي مدفوعاً ليقوم بالدور الذي فشل فيه «الجعفري» ووضع له السم في العصير أو أي شيء آخر قد يغيبه عن وعيه، «الجعفري»

نفســـه أخبره أنه كان مكلفاً باختطاف طفله، لكنه فشل بعد أن أفسد عليه العسيلي» عمله، من يدري ما الذي يدبره له هذا الجرســـون، تحول كل من تحمل بشرته الإسمرار إلى متهم، بل لقـــد تحولت بلاد النوبة بأكملهـــا إلى متهمة، أليس بها يتم وشـــم «تاتو» الرأس الشيطانية، يقولون المتهم بريء حتى تظهر إدانتـــه، لكنه قرر أن يحذر كل من تحمل بشـــرتهم الاسمرار .

لم يســـتطع المقاومة، دار بسيارته ثانية نحو منزل «العسيلي»، قفز درجات السلم قفزاً، لم تبدُ على وجه «العسيلي» أي علامات للترحيب، لم ينبس بكلمة واحدة، فقط بدت فوق شفتيه ابتسامة الأسف، مد «مروان» يده نحو الشيشة كغائب عن الوعي، أطلق من فمه حلقات الدخـــان الأزرق المعطرة برائحة الكيف، حلقات كثيفة لا تقل كثافتها عن الأنفاس الشـــرهة التي شدها من الشيشة وكأنه ينتقم منها، مع كل دفعة من الحلقات كانت تعبيرات وجه «العسيلي» تزداد خوفاً، ينظر إلى صديقه بدهشة، ملامـــح وجهه تقول أنها من المســـتحيل أن تكون لوجه صديقه «مـــروان»، تعبيرات لو وضعت في الخانـــة الصحيحة تقول أنها تعبيرات جنونية، لم ينتبه ليقرأ التعبيرات التي فوق «العســـيلي» التي تقول كفى واهرب، لم يســـتطع أن ينطقها بلسانه وكأنه شُلَ، شـــيء ما هو المتحكم في صمت «العسيلي» وجنون الحلقات الزرقـــاء الكثيفة المنبعثة من فم «مروان» كمدخنة قطار قديم،

أنهت هـــذه الحالة صوت ضحكات مزقت الســـكون واهتزت لها جدران الحجرة، قسمات وجه «مروان» تحولت إلى خطوط وكأنها كلمات مكتوبة تحكي الذعر الذي أمســـك بكل خلايا جسده، حملقت عيناه في منتصف الغيمة الزرقاء التي بدت بداخلها الرأس الشيطانية بكل بشاعة ابتســـاماتها، أراد أن يقف ليطلق ساقيه للريح لكنه أحـــس وكأنه سُمِرَ إلى الأرض، ألقى نظرة خاطفة نحو «العسيلي» فلم يقرأ سوى الأسف على كل خلجات وجهه.

توقف عن التفكير في الهرب مجبراً وليس بإرادته، نطقت الرأس الشيطانية كقاض يصدر حكماً بالإعدام موجهة الكلمات أولاً نحو «العســـيلي» بأنه ســـيلقى من العقاب ما لم يسمع به أنس من قبل، أما «مروان» فلقد اكتفـــت بأن تحذره للمرة الأخيرة إما الذهاب إلى النوبة ووشـــم «التاتو» وإما سينال هو وأسرته ما حذرته به من قبل، اختفت بعدها الرأس الشيطانية وتركتهما وكأنهما ســـكارى، نظر «مروان» نحو «العســـيلي» لكنه لم يفعل ســـوى مط شفته الســـفلى وكأنه يقول له ليس لدىَّ ما أفعله لك، حذرتك كثيراً من أن تأتي في أي وقت تكون فيه الحلقات الزرقاء تدور دورتها في المنزل وأنت أغلقت أذنيك عن النصيحة .

لم يجد أي أمل في أن ينطق صديقه ولو بحرف واحد فتحامل على نفسه ووقف وسار خطوات مترنحة، لم يدر كيف استطاعت

قدماه أن تصل به إلى السيارة وهو يلعن رعونته التي دفعته للعودة إلى صديقه بعـــد أن قرر في المرة الأولى عدم الصعود إليه عندما نفذت إلى أنفه رائحة الكيف عملاً بنصيحته، لكن كما يقولون، لا يفيد الندم، وقع المحظور، وها هو سيتســـبب في أذى صديقه وإن كان لا يعلم كيف ســـتنفذ الرأس الشيطانية عقابها، أما هو أقل شيء يقال أنه فقد الأمان الذي عاش فيه الفترة السابقة وقد ابتعدت عنه الرأس الشـــيطانية بعد أن استطاع «العسيلي» فرض سيطرته عليها، وإن كان لا يعلم كيف تم ذلك، لكن في جميع الأحوال أفقدته رعونته حماية صديقه «العسيلي» .

عاد إلى المنزل وتنفـــس الصعداء عندما وجد الأنوار مطفأة، تســـلل إلى غرفته كلص يخشى اســـتيقاظ أهل المنزل، طوال الطريق كان يفكر كيف سيقابل « سمية « ووجهه ينطق بأحداث الليلة، ستسأله وتلح في السؤال وقد يضعف ويبوح لها بأن نكبة حلت به ونكبة أخرى تســـبب فيها لصديقه « العسيلي «، يخشى عليها من نســـمة الهواء فكيف يطبق على أنفاسها بعودة الرأس الشيطانية بعد أن طردتها تماماً من فكرها، خبر كهذا قد يهد أعصابها بل قد تنهار تماماً، ماذا ســـيكون من أمر الطفل، حتى لو تمكنت من إرضاعه ســـترضعه سماً، دفن رأسه أسفل الوسادة يسأل النعاس بعض الشفقة لكنه كان أقسي من أن يستجيب، نهض واستجاب لنداء الشرفة فقد تهدأ نسمات الليل من حرارة

عقله، كشيء كان غائباً عن عقله ثم فجأة عاد وبقوة، تذكر مـــا حدث خلال زيارته لصديقه «العســـيلي»، كخاطر لم يفكر فيه من قبل، تذكر أن صديقه لم ينبس ببنت شفة منذ دخوله وحتى مغادرته، كل ما كان ابتسامة آسفة أو حزينة أو الاثنين معاً كانت تظلل شـــفتيه منذ البداية إلى النهاية، حتى عندما أطلت الرأس الشـــيطانية ككابوس مخيف لم تتغير ولم تتبدل ربما تكون زاملتهم الكآبة، هل من المعقول أن يصمت «العسيلي» هذا الصمت المخيـــف إلا إذا كان خلفه ما يجبره عليه، انتابه الجزع والرعب عليه ولم يعرف ما الذي تنتويه الرأس الشيطانية من تهديدها له، يا ترى هل سيتطيع «العسيلي» أن يلجمها ثانية، الاحتمال مستبعد وإلا كانت بدرت منه أي ذرة للمقاومة، لقد كان مستســـلماً ككبش قيد ولم يحرك ساكناً وسكين الجزار تقترب مـــن رقبته، كيف يمكنه إجلاء هـــذه الأمور الغريبة أو من يســـتطيع أن يساعده وكل باب يطرقه يُغلق فجأة في وجهه وبطريقة غريبة، كانت فرصة كبيرة للإستفادة من «الجعفري» وقد شـــلت مقاومته رزمة الأوراق المالية لولا ظهور المرأة السوداء ونظراتهـــا المهددة، المرة الأخيرة هو الـــذي أغلق الباب بيده، لم يستمع لنصيحة صديقه وأصر على الصعود رغم المؤشرات التي تقول أن «العســـيلي» يطلق أنفاس الكيـــف كالعادة، آه، لم يبق ســـوى ثلاثة أيام ســـأقضيها في التدريب بعدها المباراة النهائية

في الموسم التي ستحدد إذا كان سيظل فوق القمة أم سيمتلكها غريمه، لا بد من الفوز في هذه المبـــاراة، التعادل بالأهداف غير كافٍ، كل المباريات السابقة في جهة وهذه المباراة في جهة آخر، إذا قصر فيها لن يرحمه سوط الجمهور العاشق بجنون أن يكون ناديه في القمة دائماً، هذا اليوم إما ستخرج الجماهير في الشوارع وتمتلأ الســـماء بالهتاف والألعاب النارية ويجني الربح الوفير، وإما سينهال السخط عليه من كل جانب وتذهب مكافآت الفوز التي ينتظرها إلى الشيطان، يا الله، مالك ومال الشيطان، مجرد ذكره على لســـانك قد يفتح شـــهية الرأس الشيطانية وتهب لزيارتك أما فوق عارضة المرمى فيصبح كثقب الأبرة وتذهب ركلاتك كلها إلى الضياع، أو تتربع فوق مرآة التسريحة ليعود الذعر مضاعفاً إلى «سمية»، أستغفر الله العظيم، يجب أن أكون حريصاً حتى فيما أنطق به.

لكن ماذا عن «العسيلي»، هل سأتركه طوال هذه الأيام الأربعة دون ســـؤال عنه، المشكلة أنه لا يســـتخدم الهاتف إلا للضرورة القصوى ولا يســـتقبل المهاتفات إلا فيما ندر، مجرد التفكير في مهاتفته لا داعي له، ليس باليد حيلة وليس بالفكر أي قرار يمكن أن أحتكم إليه، ليس أمامي ســـوى الانتظار وليكن الله في عونه وليكن في عوني أيضاً وتنتهي المباراة على خير، باقي على الصباح بضع ساعات وعليه أن يذهب إلى ناديه للتدريب، لو ظل هكذا لن

يعطي ما يطمع فيه المدرب وتحدث بينهما مناوشة تزيد من ثقل الحمل فوق كاهله، تسلل فوق أطراف أصابعه نحو غرفة النوم التي ترقد بها «سمية» وطفلهما، سـره أن يجدهما وقد ظللهما النعـاس، صعد بهـدوء إلى الفراش وضع ذراعـه حول الطفل واحتضنه وهو يردد في رأسه من المؤكد أنني سأشعر بالأمان وأنت في حضني أو أنا في حضنك، نعم أنا أفتقد الأمان فمن المؤكد أنك أنت الذي ستمنحني الأمان، لم يخب ظنه وفي دقائق انتقل ظل النعاس إليه وغط في نوم كان يستجديه منذ أول الليلة .

استيقظ مستبشـراً ويد الطفل تداعب وجهه، ضحك وهو يمسك بكفه ووضعه فوق كفه وانتقل إلى قدمه وأطلق ضحكة أخافت الطفل وكاد أن يطلق صيحات الاعتراض لكن «مروان» أضحكه بحركات بهلوانية وهو يقول، كنت فقط أرى إن كانت قدمك يمكن أن تصبح قدماً تفعل بالكرة كما تشـاء كقدم أبيك أم سـتتجه اتجاهاً آخر وتُصبـح الملاعب مجرد ذكرى، حضرت «سمية» من المطبـخ على صوت المظاهرة في غرفة النوم وقد أعدت وجبة من اللبن الدافيء للطفل لكن قبل أن تشارك في الحديث دق جرس الهاتف، أسرع «مروان» ليلتقط السماعة، أربد وجهه وهو يسـتمع لصوت «العسيلي» : احضر سريعاً .

١٧

كانت مفاجأة لم يحتسب لها حساب، احتدم الصراع في داخله بين تلبية مهاتفة «العسيلي» والإسراع بالذهاب إليه، وبين أن يغلق أذنه وكأنه لم يستمع إلى المهاتفة وأن يغمض عينه وكأنه لا يعرف الطريق إلى منزله إلى أن ينتهي من المباراة المهمة، ثم بعدها يعيد السمع إلى أذنه والرؤية إلى عينه ويتذكر الطريق إلى بيت «العسيلي».

احتار دليله، توقيت في غاية الغرابة أن يطلب منه « العسيلي « الإسراع بالذهاب إليه وهو على وشك أن يتخذ طريقه نحو التدريب استعداداً للمباراة، ليس فقط الخوف من أن تخلفه عن التدريب يضعه في موقف محرج، لكن الخوف الأكبر أنه لا يعلم ما وراء هذه الزيارة فقد تفقده أيام التدريب بالكامل ومعها المباراة أيضاً التي ينتظر من ورائها نجمة أخرى في سماء الشهرة ومزيداً من المكاسب المادية . تغلب العقل على الخوف

وقـــرر أن يذهب إلى التدريب وبعد أن ينتهـــي من المباراة يذهب إلى صديقه «العسيلي» مقنعاً نفســـه بأنه اختار الجانب الآمن بالنسبة لمستقبله .

لم يكن يتوقع أبداً أن تسير الأمور على أكثر مما يرام كما سارت، أكثر ما كان يعذبه قبل المباراة هو المرمى الذي قد يضيق ويصبح كثقب الأبرة أمام قدمه وتذهب الكرة إلى الشـــتات، لم يكن يخشى الهزيمة قدر خشيته من الجمهور والهزيمة الأكبر أمام زوجته وطفله، قد يكون طفله لا يزال صغيراً ولا يدري بما يحدث، لكن الذكرى تبقى وســـيقرأ تاريخه وأنه انهزم وأصبح ســـخرية للجمهور، حاول أن يقنع نفســـه بأن هـــذا هو خوفه الوحيـــد لكن داخله كان يردد دائماً أنت كاذب .. أنت كاذب، النجومية والمال في الكفة الأخرى من مخاوفك .

لم يصـــدق أذنـــه ولا عينه وهو يرى ويســـمع رعود الهتافات والسماء التي اشتعلت فجأة بأنوار تقول ألوانها أن النصر عظيم، بالفعل كان نصـــراً عظيما للقدم التي لم تخطيء طريقها إلى المرمى وسجلت من مهارة الأهداف ما كاد يطير بعقل الجمهور .

شاهد من بعد مقصورة الدرجة الأولى وزوجته «سمية» ترفع طفلهما وقد أضاء وجهها بأضواء أكثر وهجاً من أضواء الملعب، قال في داخله الآن أستطيع أن أذهب إلى «العسيلي» وليكن ما يكون .

هذا النصر يقول أن الرأس الشـــيطانية غير قادرة حتى الآن علـــى إيذائه أو على الأقل لا تنوي مضايقته في الوقت الحالي .

أربعة أيام منذ أن طالبه «العسيلي» بالحضور سريعاً، لا يجب أن يتوانى عن الذهاب أكثر من ذلك، ســـيعتذر له ويلخص له ظروفـــه، عادت إليه الأفكار المخيفـــة بالرغم من أن فرحة الفوز بكل تبعاته لا تزال منتشـــية بداخله، «العســـيلي» لا يهاتفه إلا للضـــرورة القصوى، لكن أن يهاتفه خصيصاً للإســـرع بالذهاب إليه هذا يســـتدعي الخوف بكل قوته، هل لو ذهب ووجد دخان الكيف يصل إلى الباب الخارجي يصعد أم لا بناءً على نصيحته الســـابقة، قال في داخله أن هذه النصيحة فقدت معناها بعد أن كســـرها المرة السابقة وعليه أن يصعد مباشرة .

لم تكن هناك أي بادرة لدخان الكيف بالرغم من أن الشـــمس تتوسط كبد الســـماء، هذا الوقت في المعتاد تكون الشيشة هي الإفطـــار الثاني لصديقه، دخان الكيف تلتف حلقاته في خيوط معقدة وتتســـرب من كل منفذ حتى الطريق، صعد ولم يحتاج إلى طرق الباب لأنه كان مواربا، لم يهتم ودفعه فكثيراً ما كان يجده علـــى هذا الحال، الصمت المريب هو الـــذي قابله وبرودة تخبر عن غياب صاحب المـــكان، تقدمت خطواته في حذر، عيناه تدوران كمصبـــاح اليد تبحثان عن صاحب الدار، طاف بالمنزل

ونظر حتى إلى أســـفل الفراش، لا صوت ولا همس، التعجب مع التوتر يتنافسان، ليس من عادة «العسيلي» أن يترك االباب مواربا عندما يغيب عن المنزل، إحســـاس مؤكد بأن الأمر لا يخلو من الغرابة، أين ذهب «العســـيلي»؟، طنت في أذنـــه عبارته الهاتفية أحضر ســـريعاً، من الغباء لو فكر بأن الأمر لا تكتنفه الغرابة، هل ذهب «العســـيلي» ولن يراه ثانية، أم أنه اختفاء مؤقت، حمد الله أن كل شيء داخل المنزل كان على حالة ولا توجد أي آثار للمقاومـــة أو لجريمة قد حدثت وذهب « العســـيلي « ضحيتها، المشهد لا يدل على أنه قُتل .

كادت أن تنهي قدماه وجودها بالداخل وقد ناوشـــه الخوف، وجوده في هذا المكان الغائب صاحبه فيه خطورة عليه، حانت منه لفتة نحو الشيشـــة وكأنها نظرة وداع إلى أجل غير مسمى، أثار الظرف الأصفر الموضوع بدقة فوق حجر الشيشة المطفأ فضوله، التقطة وإذا اسمـــه مدوناً عليه بخط كبـــير، لم تخطأ عيناه خط صديقه الذي يعرفه من وسط ألف خط بحروفه الكوفية، التقطه ســـريعاً، لم يشأ أن يفضه داخل المنزل من باب الفضول ليلقي نظرة خاطفة على محتوياته، ثناه إلى نصفين ووضعه في جيبه وانطلق ســـريعاً إلى سيارته، عاند الفضول وقرر ألا يفضه قبل أن يصل إلى المنزل، بالرغم من أن خوفه على مصير صديقه «العسيلي» يقاتله .

تذكر أن سمية تعد له حفلاً خاصاً بمناسبة فوزه، أي أنه من المستحيل أن ينفرد بنفسه عند وصوله؛ لأنه سيجد من دعتهم سمية قد سبقوه ولم يعد مكاناً لقدم، ليس من المعقول أن يفضه داخل الحمام ليرضي فضوله وخوفه كمراهق ينتظر بلهفة أول خطاب غرامي، قرر أن يطيل أمد القتال وينتظر على نار حتى انصراف الجميع ليختلي مع نفسه داخل غرفة النوم الثانية مخففاً شدته بأنه الآن أو بعد ساعات النتيجة واحدة، ما حدث قد حدث، قد يكون بالخطاب ما ينكد عليه ويفسد عليه فرحته وهو وسط العائلة التي ترى فيه عملاق الكرة والملعب .

في هدوء الليل وعلى الضوء الخافت فض غلاف الخطاب بيد مرتعشة وكأنه يفض غلاف علبة يشتبه أنها مليئة بمتفجرات يمكن أن تنهي حياة من يلمسها ومن حوله أيضاً، المفاجأة أن ما بداخله لم يكن ورقة واحدة بل بضع وريقات خفيفة مرقمة بالترتيب، تبدو وكأنها لم تدون في نفس الوقت لكن على فترات زمنية، أعاد ترتيبها وركز عينه على الصفحة الأولى التي تُرخت بتاريخ قديم قرأ فيها : صديقي « مروان « لست أعلم كيف أبدأ كلماتي، التي يجب أن تكون من البداية، كنت أنظر إلى فضولك الدائم نحوي، خاصة بعد أن كشفت عن وشم الرأس الشيطانية فوق كتفي وعلمت أني من أتباعها .

البداية عجيبة يا صديقي قد تصيبك بالدهشة عندما تعلم أنني أصبحت من أتباعهـــا منذ ولادتي وقد يكون وأنا لا زلت في أحشاء أمي . كانت أمي رحمها الله لا تنجب وظلت على ذلك الحال لســـنوات طويلة عجز فيها الطب أن يعيد لها خصوبتها بالرغم من المبالغ الباهظة التي أنفقها والدي لعلاجها لكن دون فائدة حتى تملكهما اليأس من الإنجاب، رفض والدي أن يستمع إلى نصيحة البعض ويطلقها أو يتزوج عليها لينجب منها لشدة ولعه بها التي وصلت إلى العشـــق، تزعزع إيمانهما بالله للأسف ووافق أبي أن تلجأ أمي إلى المشـــعوذين، بالرغم من أنهما كان يحملان بعض التعليم، أغرتهما امرأة نوبية كانت تأتي لمساعدة أمي في شئون المنزل، أســـالت لعابهما على الأطفال وهي تقدم لهما المغريات واحدة تلو الأخرى بقصص عن ســـيدات كنا قد حرمنا مـــن الإنجاب لفترات طويلة ثم فجأة انفتحت أراحمهن وأصبحت تقذف بالأطفال دون توقف، الكثيرات منهن لجأن إلى موانع الحمل بعد أن أصبحت بيوتهن تعج بسبعة أطفال، كانا يســـتمعان إلى حكايتها المغلفة بورق الســـلفان وكأنها أطباق من أشـــهى المأكولات أمـــام محروم منذ ولادتـــه، بدأت الفكرة تنمـــو وتتفرع ومعها الأحلام بالمنزل الـــذي يعج بالأطفال بين صبيان وبنات، انقطع والدي عن زيارة المسجد الذي كان شيخه ينصحه بأن الله له حكمة في أن يرزق من يشاء ويحرم من يشاء

وأن عليه الرضاء بحكم الله، فتح أذنيه على مصراعيهما للمرأة النوبية وكلماتها عن مواهب الدجل والشـــعوذة ورأت فيها أمي أنهـــا تفتح باب الأمل من جديد بعـــد أن أغلقه الأطباء الذين برعوا في طب النســـاء، نجحت المرأة النوبيـــة في إغراء أبي قبل أمي في أن يذهبا لشيخ نوبي يسكن حي بولاق حيث كان يسكن البعـــض من أهل النوبة الذين هُجِـــروا من أرضهم بعد التعلية الثانية لخزان أســـوان في ثلاثينيات القرن الماضي .

لم يتعامل معهما المشعوذ كما يفعل البعض الآخر بطلباتهم الغريبة، فقط أخذ بعض المال وخصلة من شـــعر أمي وأعطاها بعض الأعشاب الغريبة لكي تنقعها في الماء وتشرب من منقوعها كل صباح ومســـاء وطالبهـــا بأن تذهب إليه فور إحساســـها بالحمل .

عاد أبـــي وأمي إلى المنزل وكما حكى لـــي أبي بأنهما كان يشعران بأن الأمل عاد بشـــدة لم يعرفاها من قبل عندما كانا يـــزوران الأطباء، حدث ما أثار العجب بـــل العجب العجاب في نفسيهما وأمي تزف إليه بأنها تشعر بأعراض الحمل التي تشعر بها النساء عادة في الشهور الأولى، كاد أبي أن يصاب بلوثة من شدة الفرح، كتما الخبر خوفاً من أعين الحسد، طارا إلى المشعوذ وفي يدهما الكثير من الهدايا وبعض المال وحمولة شـــديدة من

الوقار والمهابة، رفض المشـــعوذ كل الهدايا وقبل المال قائلاً أنه مأمـــور بألا تمتد يـــده إلا لبعض المال لزوم معيشـــته، لم يفكر أبـــي أو أمي في ذلك الوقت وقد أمســـكت بعقولها الفرحة بأن يسألاه من هو ذلك الآمر الذي يطيع أوامره دون نقاش، وكما ألهتهما فرحتهما عن الســـؤال الأول ألهتهما أيضاً عن السؤال الثاني عندما نظر إلى أمي بعينين شـــديدتي النظرة وكأنهما يخرجان شعاعاً مغناطيســـياً وهو يطلق فوق رأسها تعاويذ غير مفهومة ويأمرها بأن تردد ثلاث مـــرات «نعم لقد نذرت الولد»، لمن نذرت الولد؟ ســـؤال بديهي كانا يجب أن يسألاه للمشعوذ لكن الموضوع كله بالنســـبة لهما كان منحصراً في أن يسمعا صيحـــات الطفولة في منزلهما ولا يهم أي شـــيء آخر، في هذه المرة طلب المشـــعوذ أن يذهبا وأن يكتما الأمر عن الجميع حتى يأتـــي المولود وأن يذهبا به إليه في اليوم الســـابع من ولادته ولا يؤخرا يوماً واحداً حتى يعيش المولود، أعطى أمي حجاباً ألزمها بوضعه بخيط حول عنقها ولا تخلعه حتى عند الاغتســـال .

كانت كلماته بالنســـبة إليهما كقانون لا مجال للإخلال بأي بند من بنوده أو كلمات من العقيدة يجب حفظها والسير بها دون مناقشة أو اعتراض، لم يعترضا على الأطباء وعلاجاتهم الـــتي لم تأت بظافر لمولود، فهل يعترضا على من وضع المولود في حكم الحقيقة داخل أحشـــائها، فكر لا يمكـــن لومهما عليه، لم

يكن في رأسيهما سوى تحقيق الأمل الذي لم يتحقق سوى على يديه .

جئت إلى العالم وفي اليوم السابع بالضبط كانا يقفان بي بين يدي المشعوذ، ما قاله فوقي كما أخبرني أبي عندما كبرت لم تفهمه أمي ولا هو، وما أتى به من أفعال وهو يضعني في وسط غيمة من البخور كاد أن يخلع قلبيهما وهما يخشيان علىَّ من الاختناق، لكني خرجت من الغيمة ولم أسعل سعلة واحدة، نظرا إلى الموضوع على أنها بركة جديدة نلتها.

حبلت أمي لمرتين متتاليتين وقد تجاهلا الذهاب إلى المشعوذ ظناً منهما أن البركة التي أخذاها في المرة الأولى كافية، وأن رحمها قد انفتح ولا داعي للذهاب إليه ثانية، لكن في المرتين فقدا الطفل في شهره السادس، ماتا بنفس الطريقة وكأنهما أصيبا بالاختناق وقد ازرق وجهيهما وعندما أسرعا إلى الطبيب في الحالتين قال لهما بأنهما كما لو اختنقا بفعل فاعل، سارعا إلي المشعوذ طمعاً في مخاواتي بصبي أو صبية، لكنه قال وهو ينظر نحوهما نظرة وكأنها تنفذ داخل أنفاسهما وتكاد تصيبهما بالاختناق أن المطلوب واحد فقط، ظل يردد «المطلوب واحد فقط»، حتى اختفيا من أمامه، بعدها استكانت أمي للواقع واكتفيا بي .

هذه لمحـــة عن كيف أتيت إلى الحياة وعن الخطأ الذي وقعا فيه أبي وأمي بالذهاب إلى هذا المشعوذ ولم ينساقا إلى إرادة الله، وبالتأكيد كنت ســـآتي في الوقت المناســـب بإرادته ؛ لأن كل ما تحت الشمس يســـير بإرادته، كنت أود أن أكمل لك خط حياتي لكن ســـأكتفي بهذا القدر الآن .

انتظرتك لتأتي عندما استدعيتك بالهاتف لتحضر سريعاً لكن يبـــدو أنك لم تتمكن، كنـــت أود أن يكون حديثي معك وجهاً لوجه، لكن أحياناً لا نســـتطيع أن نحدد خطواتنا وخاصة لو أســـلمنا هذه الخطوات للطريق الوعر، غداً علمه عند الله إن كنا ســـنلتقي ثانية لأكمل عليك قصة حياتي .

أنصحك أن تنفذ ما كتبتـــه في هذا الخطاب حرفياً حتى لا تقع في الخطأ الذي وقعت فيه عندما حضرت المرة الســـابقة بالرغم مـــن نصيحتي بأن لا تحضر عندما تـــرى دخان الكيف يصول ويجـــول في المنزل وحدث ما حدث، ســـر على الخطوات التي حددتها لـــك ونفذها بحذافيرها فقد تبعد الخطر عنك أو تعطيك فرصة أطول لاتخاذ القـــرار الصائب، أعلم صعوبة التنفيذ لكن ليس أمامك أي خيـــار، تنفذ أو لا تنفذ، النتائج في كلتـــى الحالتين لا أضمنها لكنها محاولات لأجنب صديقي وعائلته الأخطار .

أول شـــيء يجب أن تفعله في أقرب فرصة بعد قراءة الخطاب هو أن تذهب إلى قرية «أم كرابيج» ببلاد النوبة وتسأل عن امرأة مشهورة هناك تسمى «أم ناصر»، عندما تقابلها أخبرها أنك من طرفي، واســـتمع إلى ما تقوله، قد تظهر لك الرأس الشيطانية خلال هـــذه الفترة لتجـــبرك على الذهـــاب إلى العنوان الذي ستعطيه إليك لتوشم «تاتو» الرأس الشيطانية، قد تُضيق عليك الخناق بل وتطاردك، لا تستجب لها مهما كانت الظروف قبل أن تقابل «أم ناصر»، أحذرك بأنك لو اســـتجبت ستكون نهاية المطاف للقصة كلها وتخســـر كل شيء، نفسك وأسرتك .

عندما تنتهي من هذه المهمة سأرسل لك بطريقة ما الخطوة التالية، مضطر أن أنهي خطابي لكن ستكون بيننا اتصالات، خذ حذرك دائماً من أي شخص يحاول أن يتقرب إليك في بلاد النوبة .

كاد أن تغلبـــه ضحكة هســـتيرية وهو يرد هـــل هو لغز يا صديقي؟!، ببســـاطة تامة تدعوني للذهاب إلى النوبة والبحث عن من تســـمى «أم ناصر»، لست أعلم هل أسمح لباب الشكوك نحوك أن يفتـــح مصراعيه ثانية أم أثـــق في كلماتك، للمرة الثانية أخطأت ووضعت نفســـي أمام ريـــاح الحيرة لتعبث بكل أفكاري، لو كنـــت ذهبت إليك عندما هاتفتني وتقابلت معك وجهاً لوجه كان يمكن أن أقتنع بما ســـتقوله لي، أما الآن فأنا

أقرأ الكلمات في خطابك وهي ليست كلمات عادية، نصيحة تنفيذها ليس بالسهل، قد لا يمثل الوقت أي مشاكل لأن الموسم الكروي قد انتهى وأمامي عطلة لا بأس بها، لكن ماذا عن أسرتي التي لاتعلم أي شيء عن كل هذه الأحداث، «سمية» نسيت تماماً ما يسمى بالرأس الشيطانية أو لم يتبق منها سوى خيط واه نسيته أو تتناساه وتضعه في خانة الماضي الذي لا عودة له، شيء في داخلي يؤكد إخلاصك لي وأنه من الظلم أن أضع أي علامة للشك أمام هذا الإخلاص لكن المشكلة كيف أخبر أسرتي، ماذا أقول لها عن هذه الرحلة التي يجب أن أذهب إليها وحيداً وقد تستغرق فترة لا يعلم مداها سوى الله، أما بالنسبة لأخطارها أنا لا أعلم الغيب، لكن أعلم أن هذه المشكلة وما أتت به من أحداث تقول أني مُجبراً بالسير فيها وإن كان الطريق محفوفاً بالأخطار من كل جهة .

لا بد أن أتخذ القرار سريعاً فلست أعلم ماذا ينتظرني من هذه الرأس الشيطانية لو أغمضت عيني وحاولت النسيان، أنا لا أخشى على نفسي، كل خشيتي على زوجتي وطفلي، لا بد من المجازفة، سأعمل بنصيحتك هذه المرة، سأذهب إلى النوبة وأبحث عن «أم ناصر» وليكن ما يكون .

١٨

لم يكـــن قرار الذهاب إلى بلاد النوبـــة بالقرار الذي يمكن أن يبت فيه بســـهولة، خلف هذا القرار تبعات، بالنســـبة للملاعب فليس هناك مشكلة فهو في أجازة كروية، لكن بالنسبة لزوجته «سمية» مشكلة المشاكل، أيضاً طفله، نعم هو حتى الآن لا يدرك ما يحدث حولـــه، لكن له الحق في إبداء الـــرأي حتى لو كان صامتاً في أي قرار يتخذ، خاصة إذا كان هذا القرار ســـيذهب به إلى مصير مجهول، مصير قد يكون بلا عودة، كيف ســـيخبر «سمية»، كيف ســـيجرؤ أن يتركها وحيدة هـــي وطفلها وقد تطاردها الرأس الشـــيطانية انتقاماً منه لعصيانه أوامرها، هل سيقول لها بأنه سيذهب إلى بلاد النوبة ليبحث عن المجهول، هل سيقص عليها الفترة الماضية التي تجهلها ويصارحها بأن الرأس الشـــيطانية لا تزال في حياتهما وأنه سيســـير مغمض العينين خلف كلمات تركها لها صديقه العســـيلي قبل أن يختفي ولا

يعرف له مصير، من المستحيل أن يُخبر «سمية» بما يمكن أن يقلب حياتها رأساً على عقب ويبث في داخلها الرعب الذي قد يخنق أنفاسها، عليه أن يتدبر أمره وحيداً.

لكن كيف ؟!، كيف سيبرر تغيبه للجميع، تغيبه في رفقة أسرته قد يجد له الألاف من التبريرات، لكن غيابه منفرداً تاركاً أسرته خلفه سيضع من الأقاويل ما يكفي لأن يملأ جعبة الإعلام الذي يبحث عن أي فرصة يقتنصها لنشر الأخبار التي تثير القُرَّاء وخاصة جماهير الكرة .

كوحي هبط من السماء تذكر دعوة جاءته منذ حوالي خمسة أشهر من أحد الأقارب يمت بصلة قرابة لوالده يقيم في أسوان يدعوه فيها لزيارته، كان قد قام بواجب نحوه عندما كان يُعالج بإحدى مستشفيات القاهرة، منفذ حتى لو كان واهياً يستطيع أن ينفذ منه لتبرير ذهابه وتغيبه، قد تسأله زوجته الذهاب معه سيخبرها بأنها فرصة لقضاء بعض الوقت مع أسرتها وأيضاً لأنه يخشى حرارة الجو في هذا الفصل من العام على طفلهما، قد تشك لكنها أبداً لن تنسب ظنونها لخيانة زوجية وهذا هو المهم وما يحاول أن يخفيه دائما ويبدو أمامها كقديس، وأيضاً لن يرد على خاطرها مطلقاً أن للرأس الشيطانية علاقة بالموضوع وهذا هو الأهم .

كان عليه أن يتوجه بالقطار إلى أسوان وبعد ذلك يرى كيف يمكن أن يصل إلى قرية « أم كرابيج « حيث تقيم «أم ناصر» كما أخبره «العسيلي»مستقلاً إحدى سيارات الأجرة .

تذكر أنه شخصية مشهورة وأنه لو استقل سيارة خاصة قد يلفت الأنظار إليه وهذا ما لا يريده فقرر أن يبعد فكرة السيارة الخاصة وأن يلجأ إلى المواصلات العامة متخفياً قدر الإمكان . قضى بعض الوقت في غرفته المستقلة بعربة النوم بالقطار الفاخر، لكنه لم يهنأ بلحظة واحدة تغمض فيها عيناه، الأفكار تتجاذب عقله وقد سيطرت عليه تماماً، كم يشعر بالاشتياق إلى زوجته وطفله بالرغم من أنه لم يبتعد عنهما سوى لساعات معدودة، فكرة أنه قد لا يُقَدر له العودة ثانية تقذف بكرة من اللهب داخل رأسه فيشتعل حنينه إليهما ويكاد أن يرسل لعينيه بريق الدموع، ثم يقفز خوفه إلى المجهول الذاهب إليه .

قرر أن يرتدي ثيابه ويهرب إلى عربة «البوفيه» فقد تلهيه رشفات الشاي وتوقف هجوم الأفكار المريرة . جلس أمام «الكاونتر» الذي يقف خلفه جرسون وجهه مصقولاً بالسواد الذي يبرق بلمعة شديدة وكأنه طليَّ بدهان الشعر، لم ينتبه في باديء الأمر، من الطبيعي أن يوجد الجرسونات أصحاب البشرة السوداء في مثل هذه الأماكن وخاصة أن القطار يمتد

خط سيره حتى أســـوان، حتى الترحاب الشديد الذي استقبله به الجرســـون لم يثر انتباهه فقد يكون من عشاق الكرة وتعرف عليه وفرصة أن يكرمه ويظهر إعجابه، لكن طريقة نطقه لاسمه عندما قال «نورت القطار كله يـــا مروان بيه»، جذبت انتباهه، نفس اللهجة واللكنة التي سمعها من الجرسون «الجعفري» وهو يقدم له الشـــراب يوم الاحتفال بطفلـــه، انزعاج ليس بالقليل داهمه، هل هي مجرد تشـــابه في اللهجة لأبنـــاء البلد الواحد أم هم شـــركاء مع الرأس الشـــيطانية، دقق في وجهه، الملامح متشـــابهة والاختلاف الوحيد أن الواقف أمامه له لحية مدببة تخللتها بعض الشـــعيرات البيضـــاء، أراد العودة إلى عربته لكن هجـــوم الفضول أجبره على أن يظل مكانه، تمادى فضوله وبادر بمغامرة لإشباعه، ســـؤال تصحبه ابتسامة وجهه للجرسون :

- هل لك أصدقاء يعملون في نفس مهنتك بالقاهرة ؟

أجابه مع ابتســـامة كشفت عن أســـنانه البيضاء وكأنها نسخة مكررة من أســـنان « الجعفري «

- كثيرون هم أصحاب المهنة أصدقائي في القاهرة .

سأل «مروان» بأسلوب اللامبالاة :

- أعتقد أن هناك مقهى في وسط البلد تجتمعون فيه في وقت فراغكم .

خُيل إلى «مـــروان» أن هناك نظرة ماكـــرة طلت من عينيه عندما أجابه :

- نعم .. نعم، هذا المقهى نجتمع فيه دائماً، وهو ملتقى حتى للوافدين الجدد على القاهرة حيث يجدون فرصة للعمل .

بلغ الفضول قمته وقرر المجازفة بسؤاله :

- هـــل تعرف «الجعفري»، هو يعمـــل في نفس مهنتك ودائم الجلوس في هذه المقهى .

قهقه الجرسون قائلاً :

- هـــل تعرفه يا «مـــروان» بيه، الجعفري ابـــن عمي، أنا وهو كالأشـــقاء، وقت فراغنا معاً دائماً، ودائماً أتفوق عليه في لعبة الدومينو، هو أيضاً الذي توسط لي في هذا العمل، حتى أستطيع أن أرى أسرتي في الفترة التي يتوقف فيها القطار في أسوان وعودته ثانية إلى القاهرة .

تزاحمت الأفكار في غير ترتيب فأسرع بسؤاله :

- منذ متى وأنت في هذا العمل ؟

ضرب «الجرسون» جبهته بكف يده وكأنه يحاول التذكر ثم أجاب مع ضحكة تقول أنها ماكرة وأجاب :

- منذ حوالي أسبوع تقريباً .

ضحك «مـــروان» ضحكة الخوف ونهض وهو يشـــكره على كوب الشـــاي الذي أصر الجرسون أن يستضيفه به وقرر العودة سريعاً إلى فراشه فقد يســـتطيع أن يرتب أفكاره، لم يكن يتوقع أن يكون ذهابه إلى عربة البوفيه لاحتســـاء كوب من الشـــاي سيأتي إليه بهذه المفاجأة، جرسون نوبي يعمل بالبوفيه وصديق ل «الجعفري»، هل هي صدفة بحتة أم خلفها الكثير أم هو الوهم يصور له أن كل من ســـيقابلهم من أصحاب البشـــرة السوداء هم يعملون لحســـاب الرأس الشـــيطانية، الرجـــل أجابه على أسئلته ببساطة تامة فهل هي براءة مقصودة، لم يخبيء معرفته بالجعفـــري فهل هذه أيضاً بغرض الوصول لشـــيء ما، وما هو القصد مـــن قوله له بعد أن نهض للعـــودة إلى عربته بأنه من المؤكد ســـيراه في الصباح، هل هى محض صدفة أن يتوســـط لـــه الجعفري في هذا العمل وما معنى أنه لم يلتحق به إلا منذ أســـبوع فقط، أي منذ بدأ في التفكير في الذهاب إلى بلاد النوبة، هل هناك من يرصد توقيتاته وخطواته، هل هذه الأحداث تدفعه لفتح باب الشكوك في «العسيلي» ثانية، بالتأكيد لا، ما قرأه في

خطابه يقول أنه ضحية مثله، بل سبقه وهو لا يزال جنيناً في بطن أمه وأنه بالفعل يكن له كل الإخلاص ويحاول حمايته من الشر الذي ينتظره من الرأس الشيطانية .

إجهاد الفكر أسلم عينيه للنعاس ولم يستيقظ سوى على طرقات فراش القطار يعلنه عن قرب وصول القطار إلى محطة أسوان، اغتسل وارتدى ثيابه سريعاً، تفكيره يتجه نحو عربة البوفيه لاحتساء الشاي ليزيد من يقظته يقابله تحذير خفي يحاول الرجوع به للخلف حتى يبتعد عن هذا الجرسون البريء أو المريب على حد سواء، تغلب على تردده أو خوفه واتخذ طريقه نحو عربة البوفيه، استقبله الجرسون مهللاً وهو يقول، ألم أقل لك يا «مروان» بيه بأنك من المؤكد ستأتي في الصباح لتستقبل اليوم الجميل بإذن الله بكوب من الشاي من يد عمك «عثمان»، هز مروان رأسه مبتسماً وكأنه يؤكد على قوله وهو يردد في داخله، هل تريد أن تعرفني على اسمك ثم ماذا بعد؟!، قرر أن يهرب بمجرد وقوف القطار على محطة أسوان حتى لا يلاحقه، لكنه فوجيء به يعرض خدماته وأسنانه البيضاء تزيد من ضوء الابتسامة قائلاً :

- مروان بيه سأمكث هنا ثلاثة أيام لو احتجت أن أكون دليلك إذا كنت تنوي الذهاب إلى النوبة، ثم أردف بلهجة خيل

لمروان أنها مقصودة، أنا مولود في هذه البلاد وأعرفها جيداً، إنها بلد أبي وجدي .

كاد مروان أن يفض الاشتباك الدائر في داخله بسؤال يقطع الشك باليقين، هل يسأله عن مدى علاقته بالرأس الشيطانية أم يتريث، قرر التريث وأن يدعه يكشف أوراقه أولاً، توجه بسؤاله وكأنه لا يعنيه الأمر :

- أين تقيم ؟

بدت ابتسامة فوق شفتي «عثمان» قرأها «مروان» على أنها ابتسامة ماكرة تعلن عن انتصاره وأجاب بكل ثقة :

- «أم كرابيج» قرية صغيرة لكنها جميلة وناسها بسطاء، أسرع وكأنه لا يريد أن تفلت الفرصة من يده وكتب على قصاصة ورق عنوانه وقدمها إلى «مروان» وهو يقول بلهجة بدت مخلصة، تحت أمرك يا مروان بيه .

التقطها «مروان» من يده وكأنه في غيبوبة، كاد أن ينطق بما قفز إلى خاطره فور سماعه اسم «أم كرابيج»، كاد أن يقول له اكشف عن ذراعك وأريني « تاتو « الرأس الشيطانية، عاد بذاكرته إلى خطاب العسيلي وقرأ على الهواء كلماته وهو يوصيه بالذهاب مباشرة إلى «أم كرابيج» والبحث عن امرأة

باســـم «أم ناصر» وهي ستخبره بما يجب أن يعمله، حتى لا يقع في يد أحد أتباع الرأس الشـــيطانية التي ستجبره على الذهاب إلى عمل «تاتو» الرأس الشـــيطانية أعلى ذراعه وبذلك يكون قد انضم رسمياً إلى أتباعها . وضع الورقة في جيبه ومع ابتســـامة حائرة قـــال وهو ينهض ليتجه إلى بـــاب العربة والقطار يطلق صفيره معلنـــاً الوصول إلى محطة النهاية .

- أعتقد أننا سنتقابل ثانية .

وضـــع أقدامه فوق رصيـــف المحطة وهو يوصي نفســـه بأن الحيطة والحذر واجبة منذ هذه اللحظة، اندس وسط الجمهور الهابط من القطار وزحف معهم إلى الخارج، الكثير من ســـيارات الأجرة في انتظار فتح باب الـــرزق مع الصباح، لكن بالرغم من أنه من الطبيعي أن يجد أصحاب البشـــرة السمراء هم الأغلبية في هـــذه المناطق الحارة إلا أن مخاوفه أثارت بداخله الدهشـــة، عاد وطمأن نفســـه بأن هناك فرقا بين البشرة السمراء والبشرة السوداء اللامعة كبشـــرة «الجعفري» و «عثمان» جرسون عربة البوفيه، لم يخلو الفندق أيضاً من الوجوه السمراء والسوداء معاً ضمن عماله وموظفيه . سمع عن الســـد العالي لكن لم يره من قبل فقال بصوت عالٍ ليسمع أذنه : لماذا لا أترك مخاوفي وأجعل منها رحلة سياحية .

تذكر وصية «سمية» بأن عليه أن يطمئنها بمجرد وصوله .

قال لها مازحاً عبر الهاتف : حتى الآن أنا بخير، سألته وأحس ببعض الشك في سؤالها عن قريب والده المريض الذي ذهب للسؤال عنه، تذكر كذبته البيضاء كما أقنع نفسه بها وأجابها بأن لم يره بعد وأنه يجب أن يأخذا قسطاً من الراحة أولاً، قالت وكأنها توصي طفلها بأنه يجب أن يأخذ حرصه وأن يعود سريعاً . أغمض عينيه وهو يردد أي حرص يا «سمية» مع المجهول الذي يحيط بي .

قرر أن يقضي يومه الأول كسائح يزور بعض المعالم السياحية وفي نفس الوقت وبطريقة غير مكشوفة يسأل عن قرية «أم كرابيج» حيث ضالته «أم ناصر» .

فكرة لا بأس بها أرسلها إليه تفكيره الذي لا ينقطع، لماذا لا يرتدي ملابس أهل البلد كما يفعل الكثيرون من السائحين وستكون ستاراً عليه في قرية صغيرة مثل « أم كرابيج «، نفذ الفكرة ونظر إليها كل من يعمل بالفندق على أنها فكاهة من لاعب كرة مشهور، حاول التقرب من جرسون من أصحاب البشرة السوداء فقد يساعده للوصول إلى القرية ومن يدري قد يدله على الطريق إلى منزل «أم ناصر» ذاتها، نظر الجرسون نحوه نظرة فسرتها حاسته على أنها عدائية ولم يرو غليله بكلمة

واحـــدة، ندم على محاولته، ترك بدنـــه المتعب لكامل حريته في أن يذهب لســـنة من النعاس، لم يكن قد أبحر في نعاسه عندما أفزعته طرقات على الباب، فوجيء بالنظرات العدائية للجرسون وهـــو يخبره أن هناك من ينتظره في القاعة الســـفلية للفندق، حاول أن يستفســـر منه عن هذا الزائر لكنه رفع أكتافه ومط شفتيه بشـــيء من اللامبالاة وتركه وذهب، من هو هذا الزائر وهـــو لم يكمل يومه الأول بعد، لا أحد يعلم بزيارته إلى أســـوان ســـوى زوجته، قرر أن يقطع حيرته بالهبوط إلى قاعة الانتظار موصياً نفســـه بوجوب الحرص الشديد وأن ذلك أفضل من أن يطلب من موظف الاســـتقبال أن يُصعِد الزائر إلى غرفته .

أصابته الدهشة أو عدم الدهشة لا يعلم، دهشة أن يرى أمامه « عثمان « جرســـون القطار أو عدم الدهشة لأن يلاحقه فضول « عثمـــان « الذي لاحقه به في القطار وخاصة أنه أخبره أنه من عشاق قدمه الكروية . لم يدر لماذا أحس بالارتياح لأن يكون الزائر « عثمـــان « فعلى الأقل هناك بعض المعرفة تولدت في القطار، لم يتركـــه « عثمان « لحيرته كثيراً، مع ابتســـامته التي لا تترك شفتيه قال :

- هل يمكن أن نصعد إلى غرفتك للتحدث يا «مروان» بيه .

رحب «مروان» به كخروج عن نطاق الحيرة الذي شمله منذ أن قرر المجيء، استضافه بسرور وهو ينتظر على أحر من الجمر ما قد تأتي به هذه الزيارة، قرر أن يكون لطيفاً معه للنهاية وألا يفقد أعصابه حتى يستطيع أن يميز ما ستجيء به كلماته، فليس من المعقول أن يأتي إليه في هذا الوقت لكي يشنف سمعه بأحاديث لا قيمة لها وهو في هذه الحالة، فجأة قطع « عثمان حديثه وهو في منتصفه وقال وقد انقلبت النظرة داخل عينيه إلى الجدية :

- سأصطحبك إلى «أم كرابيج» لأستضيفك كما استضفتني في غرفتك !!

قال مروان بضيق لم يحاول أن يظهر في نبرات كلماته :

- هل فقط لترد لي ضيافتي ؟!

أجاب «عثمان» بجدية أكثر :

- ولكي أصطحبك إلى «أم ناصر»

ردد مروان في داخله لقد بدأت المناورة وسأل محاولاً أن يضع الهدوء حتى لو كان مصطنعاً على كلماته :

- ومن قال لك إنني أبحث عن ما تسمى «أم ناصر»؟!

أجاب «عثمان» وقد تغيرت ملامحه إلى ملامح أخرى غير التي كان ينظر إليها «مروان» على أنها ملامح لجرسون وفقط «

- سأصطحبك كرجاء صديقي العزيز «العسيلي» .

بالرغـــم من أنه ورد في خطاب « العســـيلي « الذي تركه له بأنه سيحاول أن يســـاعده إلا أن « مروان « لم يستطع أن يخفي شكوكه التي تصدرت نظراته وقال وهو يضغط حروف كلماته:

- أصادق «العســـيلي» منذ سنوات طويلة لكن لم أسمعه حتى يذكر اسمك؟!

ضحك «عثمان» ضحكة تختلف عن ضحكاته الســـابقة بما تحمله من مـــزاح قد يحمل بعض التهكم وأجاب :

- نعم، قد يكون تعجبك في محله، لكنك أيضاً لم تكن تعلم حتى وقت قريب بأن «العسيلي» يحمل «تاتو» أعلى ذراعه اليمنى !!!

بُهت مروان وقد اختلطت دهشته بشكوكه المصاحبة لخوفه وسأل :

- وهل أنت أيضاً يوجد أعلى ذراعك هذا ال «تاتو» ؟!.

أجاب «عثمان» وقد ازدادت نظرته جدية محاولاً أن يرفع كم قميصه ليكشف عن أعلى ذراعه :

- هل يهمك أن تعرف ؟!

خاب ظن مروان في أن تكون ذراع «عثمان» موشـــومة بالرأس الشيطانية، أحس بارتياح شديد وتلاشت من عينيه نظرة الشك تماماً، عدم وجود «التاتو» أعلى ذراعه يعني أنه بالفعل لا علاقة له بالرأس الشـــيطانية، وأنه رســـول صديقه «العسيلي» أرسله لمساعدته ولا خوف ولا خشية منه .

انطلقت الترحيبات دون حساب حتى اتخمت « عثمان « الذي ضحك قائلاً :

- لو كنت أعلـــم أن نظرتك نحوي ســـتصبح بهذه الثقة لكشـــفت لك عن ذراعي منذ أن كنـــا في القطار .

قال «مروان» وقد أراحه أن يكشف عما في داخله :

- لو كنت في موقعي والذعـــر يملؤك وأنت تحارب المجهول الذي لا يتورع عـــن إيقاع الأذى بك وبأســـرتك لكنت أكثر حساســـية نحو أي غريب يحاول الاقتراب منك .

قال «عثمان» وإحساس بالود نحو مروان :

- أفهمـــك يا «مروان» بيه، أنت تريد أن تقول أنك مثل «دون كيشوت» الذي كان يحارب طواحين الهواء .

بدت ابتسامة حائرة فوق شفتي «مروان» قائلاً :

- تشبيه بديع، يبدو أنك مثقف، هل تقرأ كثيراً ؟!

- قرأت أكثر مما تتخيل .

لم أكتف بما قرأته أثناء دراستي، الكتاب بالنسبة لي هو الحياة.

انتقلت الحيرة من فوق شفتي « مروان « إلى رأسه فطرح التعجب في سؤاله :

- تقول دراستك ؟!، إلى أي مرحلة وصلت في دراستك ؟

أجاب عثمان وابتسامة تعبر عن الدهشة التي بدت فوق وجه «مروان» :

- لقد حصلت على ليسانس في الآداب قسم تاريخ منذ عدة سنوات !!

كاد «مروان» أن يقف احتراماً فهو بالكاد حصل على شهادته من معهد التربية الرياضية، لكن دهشة جديدة أعادته للسؤال :

- كيف لحامل ليسانس الآداب أن يعمل في مهنة جرسون ؟!

ضحك عثمان في شبه قهقهة وأجاب :

- ومن قال لك أني أعمل في هذه المهنة .

- ومن الذي كان يقف في عربة البوفيه داخل القطار ؟!

- لقد كنت أنا، وعملت في هذه المهنة من أجلك، ألا تتذكر عندما أخبرتك أنني في هذه المهنة منذ أسبوع واحد ؟

قال «مروان» وقد أحس بأن المفاجآت أصبحت جزءاً من حياته :

- وما الذي دفعك إلى هذا ؟!

أجاب عثمان وقد عادت الجدية إلى وجهه :

- من أجل صديقي «العسيلي»، أنا لا أتردد بأن أُلقي نفسي في النهر لو طلب مني ذلك ؟

وسؤال حائر جاء على لسان « مروان « :

- لماذا ؟!

ضحكة، كشفت أنه من الصعب الإجابة عن هذا السؤال وقال عثمان :

- قد يأتي الوقت الذي ستجد فيه أن الإجابة جاءت دون سؤال .

بادله «مروان» ضحكة تقول أنه كان يتوقع هذه الإجابة وقال :

- عندما يحين هذا الوقت أعتقد أن هناك الكثير من الإجابات لأسئلة غامضة يجب أن تجيب عن نفسها .

نهض «عثمان» وربت كصديق فوق كتف مروان قائلاً :

- أتركك الآن وموعدنا بعد الغد صباحاً حتى أكون قد رتبت أموري، وإلى هذا الحين يجب أن تأخذ حرصك .

تلاشت ابتسامة مروان المتفائلة وبدت تجاعيد الخوف فجأة وسأل :

- لماذا تنصحني بأن آخذ حرصي، هل هناك ما يستدعي الحرص ؟! .

لام «عثمان» نفسه وازدادت ربتاته وقال ضاحكاً وهو يحاول أن يزيل ما تركته كلماته فوق وجه «مروان» :

- أليس دائماً يقولون، الحرص واجب .

١٩

ذهب «عثمان» وترك «مروان» لفكرة أنه يجب أن يكون حريصاً، يسأل نفسه عن الذي يمكن أن يحدث حتى موعده مع «عثمان» للذهاب إلى «أم ناصر»، حاول أن يطرد الأفكار ولا يدع عقله نهباً لصراع الخوف .

لكن الخوف أصر أن يكون شـــريكاً داخلـــه ففي اليوم التالي عندما عاد من جولة ســـياحية نحو الساعة الثانية بعد الظهر وهـــو يحمل بعض الهدايا التذكارية لزوجته وطفله وجد أمام بـــاب غرفته مظروفاً صغيراً، حملـــه إلى الداخل وهو يخمن أنه من «عثمـــان» حضر فلم يجده فتركه له، ســـطر واحد كُتب على ورقة صغيرة داخل المظروف لعب بأفكاره وتركه لكثير من التســـاؤلات، كلمات توصيه بالذهاب إلى العنوان المكتوب فوراً دون أن توضـــح من هو الراســـل، هل من المعقـــول أن تكون من «عثمان»، نفى هذه الفكرة ســـريعاً لأن عثمان حتى لو أراد عدم

المجئ لأي سبب من الأسباب كان يمكنه الاتصال عبر الهاتف .

قرر الهبوط لسؤال موظف الاستقبال عن الذي ترك له هذه الرسالة أمام الباب، تعجب الموظف لأن الرسائل التي تترك للنزلاء تكون من خلال موظف الاستقبال وهو الذي يقوم بتسليمها إليهم ونفى أن يكون أحداً من العاملين قد وضع هذه الرسالة أمام بابه، بعد أن خطا عدة خطوات عاد ليسأله إن كان الزائر الذي أتى بالأمس قد عاد اليوم، فقد يكون «عثمان» تسلل وهو الذي وضع هذه الرسالة، عاد إلى غرفته يسأل نفسه عن العنوان الذي يجب أن يذهب إليه على الفور كتوصية الرسالة، حاول أن يغمض عينيه بعض الوقت ليعطي راحة لذهنه المكدود لكنه لم يهنأ سوى بعدة دقائق وأفزعته طرقات على الباب، نهض وهو يحاول أن لا يبدو على وجهه الفزع، سأله الجرسون ذو النظرات العدائية إن كان سيخرج هذه الأمسية أم سيظل بالغرفة، أجابه «مروان» بكلمات عدائية أكثر من نظراته قائلاً: وما شأنك أنت، لكن الجرسون أجاب كما لو كان يعد كلماته من قبل بأنه يسأل إن كان سيخرج فيعيد ترتيب الغرفة، أجابه مروان بحدة بأنه لم يقرر بعد وأغلق الباب في وجهه بعنف، تعجب بعد أن عاد إلى الفراش من سلوكه نحو الجرسون بالرغم أنه لا يأخذ عليه سوى هذه النظرات التي خُيل إليه أنها عدائية، لكن فكرة جديدة تقلبت داخل رأسه، لماذا لا يكون هذا الجرسون

هـــو الذي وضع لـــه الخطاب وأتى إليه ليذكـــره بأنه يجب أن يخـــرج ويذهب إلى العنـــوان المكتوب، فكـــرة وردت إلى عقله بأن يستدعي الجرسون ويغريه ببعض الورقات المالية كما فعل مع «الجعفري»، نفى الفكرة فنظرات الجرســـون تقول أنه من النوع الذي لا يرضخ بسهولة، فكرة أخرى قد تكون شبه جنونية في أنه يستدعيه ويغلق باب الغرفة ويكشف عن أعلى ذراعه عنوة ليرى إن كان يحمل «تاتو» الرأس الشيطانية، كما فعل مع الجعفري عندما نزع كم قميصه، الفكرة أيضاً توقفت أمام حائط الصد لأن الجرســـون يمكن أن يستغيث وتحدث شوشرة لا لزوم لها .

الأفـــكار تولد الأفكار كما يقولون، نهض وقد قرر أن يرتدي ثيابـــه ويخرج فوراً، ترك مفتاح الغرفة مع موظف الاســـتقبال وســـار بضع خطوات ثم عـــاد إليه وقال وهو يمـــد يده بالورقة ويســـأله بصوت عال إن كان يعرف هـــذا العنوان، لكن الموظف ابتســـم وأجابه بأنه لم يسمع عن هذا المكان من قبل بالرغم من أنه من أهل البلد وأوصاه أن يســـتقل التاكسي فربما السائق يمكنه أن يستدل عليه .

ســـار مروان إلى نهاية الشارع ثم انثنى يميناً وانتظر، لم تخب فكرته عندما فوجيء بالجرســـون عدائي النظرات يسير خلفه، قبض «مروان» على ذراعه بقوة وسأله لماذا يتبعه، لكن الجرسون

نفض ذراعه من يده وازدادت نظرته عدائية وأجاب بأنه لا يتبعه، فهـــذا هو طريقه إلى منزله بعد أن انتهت نوبة عمله، خفف من نظرته العدائية وقال مع شـــبه ابتســـامة أنه يمكن أن يذهب به إلى العنوان الذي ســـأل عنه موظف الاستقبال، تأكد «مروان» من أن هذا الجرسون هو من وضع الرسالة له، نظر نحوه بنظرة متوعدة وداخله يرتجف، قال له إنه يعرف كيف يأخذ طريقه .

ســـار دون هدف ثم عاد إلى الفندق وهـــو ينظر خلفه كلما خطا عدة خطوات ليرى إن كان الجرسون يتبعه، لكن يبدو أن الجرســـون كان أذكى من أن يفعلها .

قضى ليلته يفكـــر في العنوان المكتوب بالخطاب، من المؤكد هـــو العنوان الذي لو ذهب إليه لأمســـكوه عنوة ووشموا « تاتو « الرأس الشـــيطانية أعلى ذراعه، ومن المؤكد أن هذا الجرســـون وضع ليلعـــب دور الدليل إلى هناك، نفى فكرة التأكيد وحولها إلى «ربما»، فقد يكـــون العنوان يذهب به إلى مكان آخر .

أعياه الفكر يســـانده الخوف وقرر أن يكون حريصاً حتى الغد موعده مع عثمان فقد يكشف له سر الخطاب والجرسون العدائي النظرات، قرر أيضاً أن يلزم غرفته مكتفياً بمشاهدة التلفزيون .

لم تمر الليلة ســـهلة، أيقظتـــه الأحـــلام وأقلقت مضجعه الكوابيس، كان أشدها رعباً ذلك الرجل الضخم الذي جذبه من

فوق الفراش وظل يسحله خلفه فوق الأرض الخشنة حتى وصل إلى مكان أشبه بمغارة للشـــياطين، وهناك تكاثرت عليه الأذرع، أذرع فقط دون وجوه تنتهي بأكف تشـــبه أرجل الطيور، انتزعو ثيابه ووشموا كل أجزاء جســـده ب «تاتو» الرأس الشيطانية « ثـــم أطلقوه وضحكاتهم تصم الأذان، فزع وأشـــعل الضوء وظل يفحص جســـده كله والكابوس لا يزال يطارده رغم استيقاظه، أعلنت أنفاســـه المتلاحقة عن رعب ليس بالقليل، حاول أن يرقد بعدها لكنه لم يحظ ســـوى بلحظات مـــن النعاس وحتى هذه لم تدم وقد أفزعته طرقات فوق باب الغرفة، أســـرع ودقات قلبه تسابقه، وجد أمامه جرسوناً تعلو شفتيه ابتسامة يدفع أمامه بعربة تحمل طعـــام الإفطار كاملاً، قال مروان بريبة :

- أنا لم أطلب أن يصعد طعام الإفطار إلى الغرفة، ثم ألا ترى أن الوقت لا يزال مبكراً .

غمز الجرسون بعينه وأجاب والابتسامة لا تفارق شفتيه :

- خمنت أنني لـــو أتيت لك بطعام الإفطـــار إلى الغرفة قد أحظى ببقشيش وفير، لكنه لم ينتظر البقشيش وانسحب سريعاً .

وقف «مروان» حائراً أمام العربة التي لا يزال نصفها خارج الغرفة، لكنه في النهاية سحبها إلى الداخل وأغلق الباب وهو يردد في نفسه بأنه لا داعي للخوف فليس من المعقول أن تكون حاملة للمتفجرات.

وبين الإغراء والتردد أن يصب لنفسه كوباً من الشاي لمحت عينه خطاب كالذي وجده في اليوم السابق وضع أسفل المنشفة ولا يظهر منه سوى طرفه، سحبه بيد مرتعشة . قرأ في كلماته أنه يجب أن يتناول إفطاره وفي تمام الساعة العاشرة عليه ألا يسلم مفتاح الغرفة إلى موظف الاستقبال وأن يتسلل من باب الفندق الخلفي في اتجاه اليسار ويسير إلى نهاية الطريق ثم ينحرف ثانية نحو اليسار ويسير نحو مئة متر سيجد مقهى على يمين الطريق عليه أن ينتظر به، وألا يستجيب لأي أحد يحاول التقرب منه، وكان الإمضاء باسم «عثمان» .

وضع الخطاب جانباً، فكر أن يستدعي الجرسون ويسأله عن الذي سلم له الخطاب، استبعد الفكرة فقد يكون الخطاب سليماً ومن «عثمان» بالفعل فلا داعي لإثارة الشوشرة، لكن هل بالفعل هذا الخطاب من عثمان، لماذا لم يحضر بنفسه، تذكر وصيته في الخطاب أن يتسلل من الباب الخلفي من الفندق، معنى هذا أنه علم أن هناك من يراقبهما ففضل أن يتم الأمر في هدوء، لو كان رأى خط عثمان من قبل كان من الجائز أن يتعرف إن كانت كلمات الخطاب بخطه، تذكر قصاصة الورق التي أعطاها له عثمان في القطار والتي كتب له عنوانه في قرية «أم كرابيج»، تذكر أنه وضعها في جيبه ولم يلقها، أسرع وأحضرها، ابتسم عندما وجد كلمات الورقة تشبه كلمات الخطاب إلى

حد كبير، إذاً «عثمان» فضل أن يلتقي به خارج الأوتيل حتى لا يجذب الأنظار، ومن المؤكد أن الجرسون الذي أحضر له طعام الإفطار على معرفة ب «عثمـــان» ومحل ثقة، عندما يعود يجب أن ينفحه بقشيشاً كبيراً، لم يبخل على شهيته والتهم كل ما تحمله العربة من طعام .

الكثيرون من رواد المقهى تعرفوا عليه وهذا ما سبب له ضيقاً شـــديداً، كان يفضل أن يظل مجهولاً حتى يســـتطيع أن يُنهي مهمته بسهولة ويعود إلى زوجته وطفله، «زوجته» «سمية» كلما هاتفها تُلـــح عليه في العودة وهي تظن أن ذهابه إلى أســـوان لا تحمل من الأسباب سوى زيارته لقريب والده وإن كانت راودتها بعض الشـــكوك قد تكون لفظتها وهو دائـــم الاتصال بها كل عدة ســـاعات حتى لا يتركها لشكوكها وخوفها، انهالت عليه المضايفات بل وصلت إلى حـــد الإصرار بأن يقبل ضيافة الغداء أو العشاء في منزل أحدهم، الاعتذار كان شاقاً وهو ينظر نحو بـــاب المقهى كل دقيقة منتظراً وصول «عثمان» حتى ينقذه من بين أيديهم، انتظر وانتظر ولم يظهر «عثمان»، مرت ما يقرب من ثلاث ساعت وهو يوهم مضيفيه بأنه أطال الجلوس من أجلهم .

حل موعد صـــلاة الظهر ودعوه للصـــلاة للذهاب معهم إلى المسجد القريب للصلاة لكنه اعتذر، سمع أحدهم بعد أن خرجوا

من المقهى يقـــول مازحاً يا عم دا نجم كوره مشـــهور هيعمل إيه بالصلاة. أضحكته الكلمات المازحة لكنه ســـرعان ما عاد إلى توجســـاته، عثمان لم يظهر بالرغم من أنه هو الذي حدد الموعد والمكان، الأفكار المخيفة بـــدأت تأخذ دورها، هل أصابه مكروه ؟، بعد ســـاعات الانتظار الطويلة قرر الهرب مـــن المقهى قبل أن يعودوا من المســـجد وتنتظم حلقة جديدة حوله وأسئلة أفرغت إجاباتهـــا كل ما بفكره، بل أحـــس بأن الصداع قد بدأ يدب في رأســـه، قبل أن يذهب نادى صبي المقهى وأجزل له العطاء كي يراقب إذا أتى «عثمان» يبلغه بأنه ينتظره في الأوتيل أو يهاتفه إن استعصى عليه الحضور، ترك رسالته كتأدية للواجب وكأمل ضئيل أن يكون قد تأخر لأي ســـبب من الأسباب وسيحضر .

عاد وخلال الطريق احتدت بداخله صراعات كلما حاول أن يخمد واحدة تقفز له الأخرى، عادت إليه كمشـــهد ســـينمائي القصة من بدايتها، الرأس الشـــيطانية منذ أن ظهرت في حياته وحتـــى اللحظة الراهنة التي يشـــعر فيهـــا بالغربة كتائه في الصحراء، حتى «عثمان» الذي أرســـله له صديقه «العســـيلي» لمعاونته اختفـــى، الخطاب الذي وجده مـــع وجبة الإفطار من المؤكـــد أنه بخط عثمـــان، هل يمكن أن يكون قـــد أُجبر على كتابته ومـــن الذي أجبره ؟! .

قرر أن يمسك بالخيط من أوله، أسرع إلى الهاتف وسأل موظف الاستقبال أن يرسل له الجرسون الذي أحضر له وجبة الإفطار في الصباح، سأله الموظف إن كانت هناك شكوى ضده لكن «مروان» نفى التهمة عن الرجل وقال بأنه وعده ببقشيش ويريده لكى ينفحه بما وعد، طرق الجرسون الباب واستقبله بابتسامة مشجعة ووضع في يده ورقة مالية من الحجم الكبير لم يقبلها إلا بعد إلحاح، وجه سؤاله وكأن الأمر لا يعنيه كثيراً :

- هل أنت الذي وضعت الخطاب مع الإفطار ؟

- نعم يا كابتن .

- من الذي سلمه لك لتأتي به إلىَّ ؟

- صديق أتى في الصباح الباكر وشجعني أن أقدم لك وجبة الإفطار في غرفتك وأضع الخطاب معه .

- هل تعرف هذا الصديق جيداً ؟

- نعم يا كابتن أنه إنسان محترم كان جار طفولتي والآن يعمل في وظيفة كبيرة بالمحافظة ولولا هذا ما كنت قبلت، هل هناك خطأ ؟ ثم أردف، إذا كنت تريد التعرف عليه أهاتفه للحضور، هو إنسان لطيف .

قال «مروان» وقد ازدادت ابتسامته وأرفقها بورقة مالية أخرى حاول الجرســـون أن يتعفف عنها لكنه أمام الإلحاح قبل للمرة الثانية:

- إطلاقاً ليس هناك أي خطأ، وبالتأكيد عندما يكون لدىَّ الوقت سأكون مسروراً بالتعرف على صديقك .

استأذن الجرسون للانصراف لكنه قبل أن يصل إلى الباب عاد إلى مروان قائلاً :

- أراك مهتمـــاً يا كابتن بهذا الخطاب وقد تذكرت الآن ما حـــدث في الصباح، كنت أعددت كل شـــيء فوق عربة الإفطار ولم يتبق سوى أن أذهب إلى المطبخ لإحضار إبريق الماء الساخن، تعطلت قليلاً لأن الماء لم يكن قد وصل للغليان بعد وعندما عدت وجدت « إدريس « وهو جرسون زميلنا يعبث بالخطاب ويبدو أنه فضه وقرأ ما به وكان يحاول أن يعيده إلى مكانه وعندما سألته عما يفعله قال إنه ظن أنها ورقة لا قيمة لها اندســـت مع طعام الإفطار.

- هل يمكنك أن تصف لي هذا ال «إدريس»

ضحك الجرسون وقال مازحاً، إنه لا يفترق عن أي جرسون، الجميع لهم نفس البشرة الداكنة .

- هل له نظرات غريبة .

أجاب الجرسون مسرعاً :

- نعم، نعم، بالضبط، نظراته عدوانية وكأنه على وشـــك التشاجر .

٢٠

توقع الشر بالنسبة ل «عثمان» كان له الأولية في حسابات «مروان»، لم يحضر إلى المقهى حسب الموعد الذي حدده في خطابه، الجرسون العدائي النظرات عبث بالخطاب وقرأ ما به كرواية الجرسون الذي أحضر له إفطاره إلى الغرفة خصيصاً ليضع معه الخطاب، لكن ما الذي حدث بعد ذلك؟ !، هل أخطر الجرسون العدائي النظرات من يعمل معهم فأعاقوا «عثمان» عن الحضور، ولكي يعوقوه أوقعوا به الشر، كيف يعرف لكي يمد يد العون له .

«عثمان» عونه الذي أرسله له صديقه (العسيلي) وهو الآن هو الذي يحتاج إلى العون، سؤال ظل يردده حتى غلبه النعاس .

وبين اليقظة والنعاس، أصبحت رأسه كورشة عمل، انقسمت لأجزاء وكل جزء يعمل في اتجاه، جزء مع زوجته «سمية» وطفله، التفكير فيهما لا يتوقف، المهاتفة الأخيرة أعطته «سمية» ثلاثة أيام أخرى، إن لم يعد خلالها ستحضر هي والطفل،

كلماتها كانت تحمل لهجة التصميم، يعرف زوجته جيداً إذا قفزت الفكرة إلى رأسها لا تتوانى عن تنفيذها مهما كلفتها، وجزء آخر مع عثمان وما قد يكون حدث له، لم يحضر في موعده وحتى الآن لم يتلق منه أي أخبار، وجزء مع «أم ناصر» في قريتها «أم كرابيج» وما الذي يمكن أن تقوله له أو تفعله، وصية صديقه «العسيلي» لا بد أن ينفذها فقد يكون فيها الخلاص من سطوة «الرأس الشيطانية، وجزء مع الجرسون الذي أحضر له طعام الإفطار ومعه الرسالة والموقف محير وقد تكون هناك علامة استفهام، وجزء مع الجرسون العدائي النظرات الذي قرأ رسالة «عثمان» ودوره المكلف به في مراقبته .

أرسل نظره من خلال النافذة المطلة على النيل وقد قفزت إلى رأسه فكرة ماذا لو ترك كل هذا وألقى بنفسه في النيل وسبح حتى القاهرة، النيل يصل حتى أسفل منزله، فهو يراه من النافذة كما يراه الآن، شبه ابتسامة تولدت فوق شفتيه وهو يردد حقاً الأزمات والمآزق قد تولد الأفكار المجنونة، عاد إلى واقعة ثانية وكما قفزت فكرة العودة سباحة إلى منزله قفزت فكرة الاستعانة بالجرسون الذي أحضر له طعام الإفطار، تبدو على جبهته الأمانة والإخلاص، تحولت الفكرة سريعاً إلى حيز التنفيذ ومن خلال الهاتف استدعاه إلى غرفته، قال الجرسون وابتسامة توحي بالود :

- خدامك «مؤمن» تحت أمرك يا باشا .

انطلق «مروان» إلى هدفه مباشرة سائلاً :

- هل تعرف قرية « أم كرابيج «

- أعتقد أنـــه لا يوجد من لا يعرف قريـــة «أم كرابيج»، في أســـوان بأكملها واعتقد أن «عثمـــان» من هناك .

جنح «مروان» إلى سؤال لم يكن ينوي أن يسأله :

- وهل تعرف من تســـمى «أم ناصر» قيل لي أنها تقيم في هذه القرية؟

نظرة خائفة قفزت من عين «مؤمن» قائلاً :

- وما الذي يريده باشا مثلك من «أم ناصر»

أجاب «مروان» وقد انتقلت إليه عدوى الخوف :

- مجرد سؤال، ما الذي أخافك ؟

- أجاب «مؤمن» وهو يتلفت حوله ولا تزال عينه ترسل الخوف :

- يُقال يا باشـــا أنها والعياذ بالله امرأة شـــريرة تُعاشر الجن وتخاوي الشياطين، أنا لم أرها لكن هذا ما سمعته من كثيرين .

رأى «مروان» أن يوقف الحديث عن «أم ناصر» وأن يتجه إلى الغرض الذي استدعاه من أجله، قدم إليه قصاصة الورق المكتوب بها عنوان «عثمان» في قرية «أم كرابيج» وسأل:

- هل يمكن أن تؤدي لي خدمة بالذهاب إلى هذا العنوان .

أجاب «مؤمن» وقد أطل الخوف من عينيه ثانية :

- إن لم يكن هذا العنوان يصل بي « إلى أم ناصر « أنا تحت أمرك يا باشا .

ضحك «مروان» قائلاً :

- لا تخف، هذا العنوان بقرية « أم كرابيج « لكنه لن يصل بك إلى «أم ناصر» لكن سيصل بك إلى منزل « عثمان «، أريد الاطمئنان عليه، لم يأت في الموعد الذي حدده بالخطاب، ولم أسمع منه حتى هذه اللحظة، أثق في أمانتك يا «مؤمن» وأرجو أن تؤدي لي هذه الخدمة وستكون لك مكافأة كبيرة .

- تحت أمرك يا باشا ودون انتظار لأي مكافأة، لكن فقط أعطيني فرصة حتى الغد وهو موعد أجازتي الأسبوعية .

وافق «مروان» مبتهجاً وقبل أن يخطو «مؤمن» خارج الغرفة، ناداه وأوصاه ألا يخبر الجرسون «عدائي النظرات» بالمأمورية التي كلفه به، ضحك «مؤمن» وقال إن هذا الجرسون الجميع لا

يقتربون منه إلا بما يتطلبه العمل . كانت مفاجأة غير متوقعة، فتح «مؤمن» باب الغرفة، فانزلق الجرسون العدائي النظرات إلى داخلها، كان يقف خلف الباب ملصقاً أذنه للتنصت على ما يدور داخل الغرفة . كانت فرصة ليتلقفه «مروان» وببراعة يكشف عن أعلى ذراعه ليبدو «تاتو» الرأس الشيطانية واضحاً، وكانت الخطوة التالية أبرع عندما قيد يديه خلف ظهره ووضع في جيبه ساعته الذهبية وقال مبتسماً:

- الآن لك أن تتخير بين الإجابة عن كل ما تُسأل عنه وبين الذهاب إلى الزنزانة بتهمة السرقة، وأعتقد أن «مؤمن» لن يبخل بالشهادة ضدك وبأنك كنت تتلصص على خطواتي، وضبطك وأنت تفض رسالة خاصة بي وتقرأ ما بها وعلمت بأنني سأغادر الغرفة، فتسللت إليها وقمت بسرقة الساعة الذهبية التي نسيتها في الحمام .

قال الجرسون وقد ازدادت عدوانية نظراته :

- لن أرضخ لتهديداتك ولن تجبرني على أي شئ .

قال مؤمن محاولاً تدعيم موقف «مروان» :

- ولماذا العناد، تذكر الجرسون الذي سرق بعض الأوراق المالية من السائح نزيل الأوتيل وطرد من العمل وهو الآن لا

يزال سجين الزنزانة، ثم أردف مغرياً، ولا تنسى أن « مروان « باشاً لن يبخل عليك بمكافأة طيبة .

نظر عدائي النظرات نحو الأرض وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة وكأنه يتحدث مع طرف آخر، رفع رأسه نحو مروان وقد تلونت عيناه بالإحمرار قائلاً :

- سل ما تشاء وسأجيبك .

- لقد اطلعت على الخطاب الذي كان فوق عربة الإفطار وعلمت ما به، أليس كذلك ؟

- نعم .

- وماذا حدث ل « عثمان « الذي واعدني على اللقاء من خلال الخطاب الذي اطلعت عليه ولم يحضر ولم أسمع منه حتى الآن ؟!

اندست نظرات مندهشة مع نظراته العدائية لكن كانت تنطق بالكذب وسأل :

- من هو «عثمان» أنا لا أعرف عن ماذا تتحدث ؟

تحولت نظرة «مروان» إلى نظرة مخيفة وقال بصوت تعلوه نبرة التهديد وهو يتجه نحو الهاتف قائلاً :

- يبدو أنه لن يصلح معك سوى الشرطة .

أدرك أن مروان لا يمزح، قال وقد تحولت نظراته العدائية إلى نظرات نارية :

- عثمان يرقد في المستشفى العام .

سأل مروان منزعجاً :

- لماذا ؟!

- صدمته سيارة مسرعة عندما كان في طريقه إليك في المقهى .

قال مروان والنظرات النارية قد انتقلت إلى عينيه :

- بالتأكيد أنت تعلم من هو الذي صدمه .

أجاب عدائي النظرات بخوف:

- أنا لا أعلم من الذي صدمه لكن أعلم أن السبب هو منعه من مقابلتك حتى لا يأخذك إلى «أم ناصر» .

نظر «مؤمن» نظرة حائرة نحو «مروان» وسؤال حائر مثل نظرته يطن في أذنه، ما الذي يدفع نجم كرة مشهور مثل «مروان» للذهاب إلى امرأة مثل «أم ناصر»، يسمع عن الكثير من المشهورين يلجأون إلى المشعوذين ومن يدّعون معرفة الغيب، لكن «أم ناصر» ليست مشعوذة عادية، الكثيرون يخشون الاقتراب حتى

من باب بيتها، قال بمكر وهو يشـــير نحو عدائي النظرات :

- أنت الآن الذي سيذهب مع «مروان» بيه إلى «أم ناصر» .

انتفض عدائي النظرات قائلاً :

- اذهبوا بي إلى الشـــرطة أو حتى إلى الجحيم لكن لن أذهب مع أحد إلى «أم ناصر» .

فك مروان وثاقه ووضع في جيبه بعض الأوراق المالية قائلاً :

- اذهب الآن وقد أحتاجك ثانية .

وقال «مروان» ل «مؤمن» :

- الأولوية الآن الذهاب إلى المستشفى للاطمئنان على عثمان .

٢١

كانت الصدمة شـــديدة وقـــد بدت فوق وجهـــه بكل ألوان الطيف وصوت «أم ناصر» الذي يشبه صوت مجموعة من الرجال اتحدوا معـــاً في الحنجرة تأمره بالعودة مـــن حيث أتى لأنه لا يوجد علاج أو دواء له، لم ير وجهها، عينها اليمنى فقط الشيء الوحيد الظاهر فقط من كومة سوداء ليس لها ملامح، النظرة الوحيدة كانت تنفذ من خلال الثقب كســـهم اشـــتعل طرفه بالنيران، الموقف كلـــه حدث في ثوان قبل حتى أن يقترب منها أو تعطـــه فرصـــة للجلوس، ذهب إلى قريـــة « أم كرابيج « بعد عقب زيارته إلى عثمان في المستشفى الذي كان يرقد بها داخل الأربطة التي تحيط بكامل جسده، نظر «عثمان» نحو مؤمن الذي أصر أن يرافقه، ســـأله أن يصطحبـــه إلى أم ناصر، قبل «مؤمن» علـــى مضض بالرغم من خوفه الـــذي لم يمانع أن يظهره لكن «عثمان» طمأنه، جاء اللقاء مع «أم ناصر» غير ما توقع «مروان»،

لم يكن لقاءً لكنه كان أشبه بأمر لا يقبل المناقشة للخروج من محضرها، لكنه بعـــد أن خطا عدة خطوات، عاد والتفت نحوها وقال بصوت وضع فيه كل قواه:

- جئتك من طرف صديقي «العسيلي»

ساد الصمت لبضعة لحظات وسألته بصوت أقل خشونة :

- لم أسمع منه عنك .

- لكنه صديقي .

- منذ متى ؟

- منذ سنوات طويلة .

سألت بصوت يميل إلى الخفوت :

- أين هو ؟

أجاب بصوت أكثر خفوتاً .

- لقـــد اختفى منـــذ فترة وترك لي رســـالة لمقابلتك ولقد تجشـــمت الحضور من القاهرة تاركاً أســـرتي من أجل هذا .

لان صوتها وقالت بصوت مطعم بالمودة :

- اصرف من يصطحبـــك ليعود إلى عمله واجلس أنت على المقعد المواجه لي .

نظـــر «مؤمن» نحو «مروان» بنظرة وكأنها تســـأله هل ينفذ أمرها وينصـــرف أم ينتظر، لكن « مروان « أومأ له لكي ينصرف وإن كان في داخله يود لو انتظر معه، لكن يبدو أن «أم ناصر» لم تعتد على المناقشة . المفاجأة أكبر من أن نصفها بأنها أصابته بالدهشـــة عندما كشفت أم ناصر عن وجهها ليجد نفسه أمام جمال يمكن أن يصفه دون مبالغة بأنه لم ير مثله من قبل، وجه في مقتبل العمر كوجه آلهة إغريقية، العينان الآسرتان امتدت نظراتهما والتحمت مع عينيه فأحس بأنهما سلباه كل مقاومة وأصبـــح عاجزاً أن يحول عينيه أو ينتزعهما من هذا الأســـر، لم يعرف سر النشوى التي دبت في كل خلايا جسده وتركته يهيم في عالم آخر من الجمال أنســـته كل مـــا حوله وحتى ماضيه، أمنية في داخله أن يظل محلقاً في هذا الفضاء اللانهائي لأكبر وقت وكأنها أرادت أن تحقق أمنية دارت في رأسه، انتزعت تماماً كل مـــا يحيط برأســـها لتبدو خصلات الشـــعر الفاحم وقد انسدلت حول كتفيها في بعثرة فاتنة مثيرة ليدخل «مروان» في متاهة أخرى غير متاهة النظـــرات فحولته إلى مخمور عب من الخمر ما يدير برأس مدمن .

حاول أن يقوم ويلمس بيده هذا الوجه الذي يكفي لأن يضيء مدينة بأكملها ويحرك قلب الملائكة، لكنه أحس بأنه شُـد إلى مقعده بسلاسل لا سبيل إلى فكها كمن يشاهد مشهداً صامتاً، عيناه مشـدودتان إلى الأمام ولا حول له ولا قوة في أن يسـيطر عليهما، أذناه لا تسمعان سوى صوت أنفاسه المتهجدة كأنفاس غريق على وشـك النهاية، وليزداد هـروب عقله، فجأة تلونت الغرفـة بلون أحمر وأصبحت غير الغرفة التي كان يجلس فيها منذ برهة، تبدل كل شـيء، ستائر مخملية حمراء على نوافذ لم يرها من قبل، في ركنها البعيد يمتد الفراش الذي كسَّـي بملائة حمراء، دارت عيناه في الغرفة بدهشة أكبر من الدهشة التي سكنتهما عندما شاهد الوجه القمري المكلل بالليل الفاحم، جذبت انتباهه المنضدة والمقعد في ركن الغرفة القريب وشيشة لم ير مثلهـا في حياته، هل يمكن أن تكـون بالفعل من الذهب المطعم بحبات الماس؟!، وما هذا السـائل الـذي بداخلها الذي يبدو كماء الذهب، لم يقاوم كثيراً، وقف وسـار نحوها وكأنه سـائراً في نومه، كاد أن يقهقه وهو يرى الفحم المتجمهر فبدا كحبات العقيق وقطعة الكيف الكبيرة الموضوعة بعناية في طبق فـوق المنضدة ورائحتها الذكية تنفذ إلى أنفه قبل أن يمسـها الفحم المتقد، نعم من المؤكد أن هذا الاسـتقبال الرائع أُعده له، صديقه «العسـيلي»، من المؤكد أن له كرامة كبيرة لدى

«أم ناصـــر» فأوصاها أن تكرمه وتفيض في كرمه فكشـــفت عن وجهها القمري وهيأت له الشيشة الفخمة ولم تغفل عن الكيف كجلساته مع صديقه، لكن هيهات أن يحدث التقارب، أين هذه الجلسة من جلســـاته هناك، ســـيجذب أنفاس الشيشة ويمتع نظره بهذا الوجه الذي يهز قلب الجبل، لم يتوان، جلس وبمهارة «العسيلي» في إعداد الشيشة المطعمة بالكيف جذب النفس الأول وأطلق حلقاتها وُخيل أنه يحلق مع هذه الحلقات، هلى سيجلس فوقها كما كانت تجلس «الرأس الشيطانية» عندما كانت تأتي إليه في منزل «العســـيلي»، كاد أن يقهقه وكل نفس ينقله إلى متعة أكبر ممن قبلها، اتجه نظره نحو مجلس «أم ناصر» ليطعم الأنفاس بنظرة إلى الوجه الناصع، أغمض عينيه وفتحهما لكن لم يكن هناك، أين ذهبت «أم ناصر» ووجها الذي يعيد الحياة إلى فاقدها منذ أعوام طويلة، هل تركته ينعم بالشيشـــة وستعود بعد أن ينتهي من أنفاسها، لا بأس، من المؤكد ستعود وتتحدث معه ويسمع صوتها الذي من المؤكد سيشبه الأجراس الموسيقية، تذكر الفراش المخملي الذي يقبع في الركن البعيد وتســـاءل إذا كانـــت «أم ناصر» ترقد في نفس الغرفة التي تســـتقبل فيها زوارها، اتجه نظره نحوه، اختلطت أنفاســـه مع أنفاس الشيشة وعيناه تلتقطان صـــورة نقلت الدوار من بدنه إلى كل خلية في جســـده وأصبحت تدور في كل الاتجاهات دون أن تفقد توازنها،

عقله فقط هو الذي كاد أن يفقد توازنه أو كاد أن يخرج خارج رأســـه ويتركها فارغة، أم ناصر تقف أمام الفراش وقد قررت أن تضيف إلى روعة الوجه روعات أخرى لم ترد في الأوصاف من قبل، قررت أن تعود إلى بطن أمها ثم تخرج وقد ارتدت عريها بالكامل، هالة من الضوء الأبيض المرمري تشع من الجسد العاري فتحول المشـــهد إلى صورة ل « فينوس « آلهـــة الإغريق وحولها إطار من حمرة الغرفة، أومأت بابتســـامة وكأنها تســـتدعيه سريعاً إلى حضنها، ألقى بالشيشة وسار نحوها وحلقات الدخان المحتبسة تخرج متلوية وكل مشـــاعره تركزت في الهالة المضيئة، سارت خطواته متعجلة مترنحة وهو يســـتبعد المسافة بينهما وكأنها تحولت إلى عدة أميال، ها هو يصل وما عليه ســـوى أن يقتطف أشهى الثمار، امتدت يده نحو النهد البلوري وقبل أن تحتضنه، هبطـــت صفعة فوق وجهه أحس بأنها آتية من جهنم.

اهتزت رأســـه تحت ثقـــل الصفعة، هوت علـــى جانب وجهه كمطرقة محماة، بالكاد حفظ توازنه، كمســـتيقظ بعد رؤية مخيفة فتح عينيه ليجد نفسه مع نفس المشهد الأول، لم يبق أي شيء مما كان فيه، اختفى كل شيء، اختفت فينوس العارية، عـــادت الحجرة إلى ما كانت عليه، هـــو يجلس على المقعد و « أم ناصر» كومة ســـوداء لا يظهر منها سوى عين نافذة تتمتم ببضع كلمات لم يفهمها، وضع يده على جانب وجهه يتحسس

أثـــر الصفعة لكن ثلوجة وجهه بالرغم من الجو الحار تقول أنه لم يســـتقبل أي صفعة، حول وجهه بحســـرة نحو ركن الغرفة وقد تذكر الشيشة وقطعة الكيف ذات الرائحة الذكية، ارتدت نظراته بخيبة كما ارتدت عن فينوس العارية، انتبه على صوت « أم ناصر « الأجش وكأن عشرة رجال اجتمعوا على صوت واحد، نظـــرة عينها الوحيدة نفذت خلال عظامه وقالت موبخة:

- رجل تحكمك وتســـيطر عليك أحلام الشـــهرة والشهوة ويمكن أن تدفـــع بك إلى أي اتجاه كالبعوضـــة التي يبهرها الدفء وتذهب إلى الشـــواء عن جهل .

قال معترضاً :

- يمكن أن أحلم بالشـــهرة لكن كلمتك عن الشهوات غير صحيحـــة فأنا متزوج وأحب زوجتي.

كعشرة رجال اتفقوا على ضحكة واحدة قالت :

- أعلم أنك كاذب، ولك مغامراتك مع النساء بالرغم من أنك تحب زوجتك، وما رأيك في الشيشة وقطعة الكيف والمرأة العارية التي ســـارت إليها قدماك بطريقة ثور أطلقوه على بقرة لأول مرة، ويدك التي امتـــدت نحوها لتقتطف ثمارها ثم تقفز إلى خطوة بوهيمية أخرى، ثم أردفت بأسلوب كأم تنهر مراهقة

طفلها، ماذا تسمى هذا؟!، هل تبخرت زوجتك التي تقول أنك تحبها؟، إن شـــهواتك كامنة داخلـــك ويمكن أن تقفز في أي وقت وأي زمان كاسرة حلقة إرادتك بسهولة ويسر وتذهب بك إلى أي طريق حتى لو كان يفضي إلى الموت .

ارتـــج فكره وأحس به ككرة تتقاذفها الأقدام، إذاً كل ما رآه كان صحيحاً، كان حلمـــاً جميلاً كان يرجو ألا ينتهي بهذه الصفعة الحمراء، نعم كان المشـــهد حقيقة، أنفاس الشيشـــة المطعمـــة بالكيف لا تـــزال بقاياها بداخلـــه كأجنحة الطير المرتخيـــة وهو يســـتعد للهبوط إلى الأرض، بقايـــا من دغدغة حواســـه الجنسية لم تغادر جســـده وتقول إنه كان على وشك الدخول في مغامرة وردية ثم انقطعت كتيار كهربائي احتدمت حرارة أســـلاكه وانصهرت فســـاد الظلام لكن الحرارة لم تغادر الأســـلاك بعد، تململ في جلسته، تلجم لسانه ولا يدري كيف يفك لجامه، بماذا يجيب وما كان فيه لم يكن سوى حقيقة و «أم ناصر» كانت تراقبه خطـــوة بخطوة وإلا ما كانت وصفت المشهد كما عاشـــه بالضبط، هل هذا اختبار أو امتحان منها لتعرف الداء وتصرف له الـــدواء، حتى الآن لا يعرف لماذا دفعه صديقه «العســـيلي» وأكد عليه للذهاب إلى «أم ناصر» واختفى بعدها، ولماذا لم تقبله إلا بعد أن عرفت بصداقته ل «العســـيلي»، كيف اســـتطاعت أن تقلب الغرفـــة إلى اختبار لمدى تحكمه في

شهواته وهي تراقبه مراقبة الكاميرا الخفية وفجأة وضعته أمام سلوكه الذي ثار أمام الكيف والجنس، هل هناك اختبارات أخرى أم ستكتفي بهذا الاختبار وتصرفه، لكن ما هو العلاج، الطبيب يكتب روشتة بالدواء يصرفها المريض، فما الذي ستكتبه في روشتة علاجه، فاق على صوتها الذي يشبه وكأنه صادر من حنجرة عشرة رجال في نفس الوقت يسأله سؤالاً أسرعت له دقات قلبه وطنت في أذنيه :

- لماذا تآمرت على زميل الملعب بهذا الأسلوب الخسيس ؟!

تحشرجت الكلمات في فمه، أحس بأنه يقف أمام جهاز مخابرات عالمي يحصي عليه خطواته وسكناته منذ طفولته، لا يرى في يدها فنجان قارئة الفنجان أو تسلك كضاربة الرمل والودع، فقط جالسة في سكون أسفل أغطيتها السوداء التي لا تفتح منفذاً سوى لعين واحدة يحس بنظراتها كسن الرمح ينغزه في جانبه وهي تتلو عليه سؤالها، أجاب مرغماً وهو يعلم أن الذي كشف لها ماضيه سيفضح أي كذبة وقد تطرده من حضرتها :

- لقد كان غريماً إما أن يبقى هو للعب في النادي أو أبقى أنا، واحد منا يجب أن يذهب، فدبرت له مكيدة قرر بعدها النادي الاستغناء عنه .

اخترقت النظرة النافذة من عين واحدة رأسه وكأنها تثقبها وقالت :

- وهل هكذا يسلك الشرفاء، أنت لم تدبر المكيدة، لكنك ذهبت إلى شخص عُرف بقدرته على الإيذاء باستخدام قوة سفلية ودفعت له وقام بعمله وكان ما كان .

قال محاولاً الدفاع عن نفسه :

- أحيانا يكون الإنسان مضطراً، لقد كنت في بداية حياتي الكروية، وكان وجودي بالملعب وخاصة هذا النادي الذي لازمته حتى الآن، مسألة حياة أو موت بالنسبة لي .

ازدادت النظرة نفاذية وقالت وقد تحول صوت العشرة رجال الخارج من حنجرة واحدة إلى التوبيخ:

- هذه حجة كل من يبتعد عن الشرف في سلوكياته، التبرير لكل عمل يتنافى مع الأخلاق.

ابتلع الإهانة وهو في وضع لا يسمح له حتى لمجرد الاعتراض وقال وهو يبدي الأسف :

- نعم أعترف بأنني أخطأت، لكن لقد مضى زمان تصحيح الخطأ .

- نعـــم لقد مضى زمان تصحيح الخطأ وأيضاً لقد فات وقت الأســـف، لكنك لم تنـــدم حتى الآن، ولا زلـــت حتى الآن على علاقة بهذا الشـــخص الذي يمدك بالأحجبـــة والتعاويذ، ولا يزال ضميرك على اســـتعداد أن يغالط أي حق يعترض طريق نجاحك .

قال مستنجداً

- نعم، نعم، ولهذا جئت في طلب معونتك .

قالت بتهكم :

- حتى في هذه تسلك طريق المرواغة والكذب، أنت لم تجيء بمحض إرادتك، لكن صديقك « العســـيلي « هو الذي دفعك لكي تأتي إلى هنا، وللأسف حتى لم تخبر صديقك بأمر ترددك على هذا الشخص الذي يســـتخدم القوى السفلية، وأيضاً أنت الآن لا تبحـــث عن تنقية ضميرك، لكـــن تبحث عن النجاة من الرأس الشـــيطانية وأن لا توشم ذراعك بها وتصير من أتباعها، بالرغم مـــن أنك كثيراً ما فكـــرت أن تنضم إليهـــا بعد أن ساندتك في الملعب وفوق الفراش، لكن خَشيَتك على زوجتك وطفلـــك هي التي تعوقك، وحتى هذه أصبح مشـــكوكاً فيها بعد الاختبار الذي أجريته الآن ورأيت حبائل شهواتك تجذبك بقـــوة، معنى هذا أنك ممكن أن تنضم إلى الرأس الشـــيطانية

لو أحسســت بأنك ستفقد شهرتك الكروية وأمام ما يمكن أن تعرضه عليك من نساء أخريات يفقن زوجتك جمالاً وثروة .

أحس بأنه تعرى تماماً أمام نظرتها النافذة وقال بصوت حاول أن يضع فيه نبرة الاستعطاف:

- أقســم لك بأنني الآن لا أريد ســوى النجــاة من الرأس الشــيطانية وهذا الوشــم الذي ســيحولني إلى عبد لها .

قالت في لهجة حازمة :

- قد تكون نيتك صادقة في هذه اللحظة وأنك تسعى إلى ما تقول بعد أن اكتشــفت ذاتك الضعيفة لكن يجب أن تعلم أن الطريق طويل والدواء مرير؟!.

ارتج عقله وسأل بجزع :

- كيف؟!

- لن أستطيع أن افعل أي شيء قبل أن تذهب إلى هذا الرجل الذي يستخدم القوى السفلية وتلقي أمام وجهه بالحجاب الذي أعطاه لك لتأخذه معك إلى الملعب وتقول له «فك أسري»، وإن لم يستجب سأعطيك قرطاســاً به بعض الرماد، غافله وانثره على وجهه وقل له «أم ناصر» تقول ســتحول حياتك إلى جحيم إن لم تفك أسري .

سأل والخوف يملأ قلبه وعينيه:

- وهل هذا سيؤثر على قدراتي في الملعب؟

- إذا كنت تعتقد في مثل هذه الأباطيل بالتأكيد سيؤثر، تفكيرك بأنك فقدت هذا الباطل وبأنه قد يؤثر عليك هو الذي سيؤثر، لكنه في الحقيقة لا يؤثر لكن الوهم هو الذي يلعب بفكر من ينقادون إلى هذه الخزعبلات .

قال وبعض التردد يلعب بصوته :

- هل أتجرأ وأسألك سؤالاً .

- أعلم سؤالك قبل أن تسأله !!، هناك فرق بين من يستمد قوته من انتصار الشيطان ومن يستمد قوته من هزيمة الشيطان. فرق كبير كالفرق بين انتصار الخطيئة والانتصار على الخطيئة، الأولى سهلة جداً ويقع فيها ملايين البشر في العالم كل لحظة، والثانية صعبة وصعبة جداً وقلائل هم الذين يعرفون السلاح الذي ينتصرون به .

قال بتردد أكبر :

- في الحقيقة هو السؤال الذي كنت أود أن أسأل عنه لكني لم أفهم الإجابة !! .

قالت بلهجة من يريد أن ينهي الحديث :

- أعلم أن رأسك يعقد مقارنة بين هذا الشخص الذي يستخدم القوى السفلية وبيني، لن تفهم الآن لكن ستفهم بعد، والآن أذهب واعمل ما أمرتك به ولا تعد إلى هنا قبل أن يفك هذا الرجل أسرك، لا تخرج من الباب الذي أتيت منه بل أخرج من هذا الباب الموجود في نهاية القاعة، هناك مفاجأة في انتظارك .

نهض وقد ازدادت أفكاره تعقيداً، هل تقول مفاجأة أخرى في انتظاري !، ألا يكفي ما أنا فيه من مفاجآت، اتجه نحو نهاية القاعة ورأسه تدور خوفاً من أن يكون اختباراً ثانياً مثل اختبار الشيشة والكيف والفراش وفينوس العارية التي كانت تقف أمامه وتشير إليه أن يقترب لتلطمه في النهاية بصفعة نارية أخرى، وضع يده المرتعشة فوق مقبض الباب وأدارها كمن ينتزع صمام الأمان من قنبلة، منذ أن وطأت قدمه بيت «أم ناصر» وهو لا يعرف أين هو وكأن غمامة قد غلفت عقله وحجبت عنه كل فكر، فقد الإحساس بأنه يملك نفسه، سار في الدهليز الطويل وكأنه يسير في نفق أسفل الأرض والإضاءة الخافتة تعينه فقط على نقل خطواته، باب آخر في نهاية الدهليز، لا بد أن يضع يده على مقبضه وإلا سيظل سجين الدهليز، الضوء خافت داخل الغرفة لا يستطع أن يميز ما بداخلها، قاد خطواته وهجاً قال

في داخله أنه يشـــبه وهج الشيشة، سار في اتجاهه، رائحة الكيف بدأت تغزو أنفه، توقف عن السير، اهتزت اعصابه، هل هو اختبار آخـــر دبرته «أم ناصر»، ليس من المعقول أن تعيد نفس الاختبار، الشيشـــة وما بعدها، هل تسمرت في مكانك يا مروان، يجب أن تتقـــدم وليكن ما يكن، خطوات ثقيلـــة أخرى للأمام ثم توقفت أمـــام المفاجأة التي قالت عنها أم ناصر، مفاجأة لم تأت إلى ذهنه مطلقاً، آخر شـــيء كان يتوقعه أن يجد صديقه « العســـيلي « بشـــحمه ولحمه أمامه، مزيد من اهتـــزاز الأعصاب، هل هو في بيت «أم ناصر» أم هو في بيت «العســـيلي»، نعم نفس الغرفة، بل نفس الجلسة الأرضية، الشيشة والكيف، صوت «العسيلي» يقول ضاحكاً :

- ما بالك يا رجل تحملق في وجهي وكأنك رأيت شـــبحاً، أبعد هذه الغيبة تقابل صديقك بالصمت .

خرج صوت من بين شفتيه كاد أن ينكر أن يكون صوته سائلاً :

- هل أنت حقيقي صديقي « العسيلي « أم سأنال صفعة تهوي فوق وجهي وأجد بعدها بأنني لا زلت فوق مقعدي أمام « أم ناصر« .

تحولت ضحكة «العسيلي» إلى قهقهة قائلاً :

- اجلـــس يا رجل وخذ حظك من الكيف أنت مع صديقك «العسيلي» في بيت «أم ناصر» .

جلس «مروان» وأبعد الشيشة التي قدمها له العسيلي قائلاً :

- سؤال يتقدم الأسئلة كلها أرجو أن تجيبني عليه، ما مدى علاقتك بأم ناصر ؟! .

- علاقة الابن بأمه .

- لا أفهم ماذا تقصد ؟

أطلق «العســـيلي» الدخان من بين شـــفتيه بحلقاته الزرقاء المتماوجة وأجاب :

- أعتقد أن فحوى الخطاب الذي تركته لا تزال في رأســـك وعلمت منـــه كيف جئت إلى الحياة، وأنـــني أصبحت من أتباع الرأس الشـــيطانية منذ ولادتي، لكن لم أذكر ما تم بعد ذلك ووعدتك بأنني ســـأخبرك به عندما نتقابـــل ثانية، وها نحن تقابلنا .

بعد أن أتممت عامي الأول جاءت المرأة النوبية التي كانت تأتي لمساعدتهما بورقة من المشعوذ ويبدو أنها كانت تساعده بإغراء الناس للذهاب إليه حســـب حاجاتهم، هذه الورقة كان مكتوباً بها بضع كلمات تأمرهما بالذهاب إلى أسوان كالعنوان المدون

لعمل وشم أعلى ذراعي الأيمن وإلا سأتعرض للمخاطر التي قد تُنهي حياتي، جزع أبي وذهب إلى المشعوذ الذي أصر على ذهابهما ولم تثنـــه الورقات المالية بل رفضها، وعندما ســـأله أبي قال له أنهما قبلا أن ينذراني وأن أمي رددت خلفه عبارة « نعم لقد نذرت الولد «، هذه المرة كانا قد فاقا من اللهفة على الإنجاب وسألاه، لمن نُنذر الولد « وأجابهم باقتضاب أن النذر لصاحب الصورة التي ستوشـــم على أعلى ذراعي، فُجعا وهما يشـــاهدان صورة الرأس الشـــيطانية، لكن كما يقولون، حاولا أن يخففا وقع الصدمة على نفسيهما بأنها مجرد صورة والموضوع مجرد وهم، لكن القدر كان يخبيء لأبي الأسوأ، لقد ماتت أمي في حادثة بشعة عندما انزلقت قدمها وسقطت أســـفل عجلات القطار في رحلة العودة من أســـوان، امتلأ قلب أبي بالحزن لأنه كان يحبها حباً ملك كل جوانحـــه، لم يقبل فيها عزاء ولا مواســـاة، لا يردد ســـوى جملة واحدة، متى ألحق بها، حاول صديقه القديم الذي كان يســـتضيفه في منزله في أسوان أن يخرجه من حزنه الذي قارب أن يصـــل به إلى الجنون إذ كان يهمهـــم بكلمات غير مفهومة، خشـــيَّ عليه بالفعل فاصطحبه وهو يحملـــني إلى «أم ناصر» إذ كانت لها شـــهرة ذائعـــة في معالجة مثل هـــذه الحالات، لكن علاجه تم بطريقة صدمة جديـــدة، فكما يقولون صدمة يمكن أن تذهب بصدمة جديدة عندمـــا حملتني بين ذراعيها ونظرت

إلى وجهي ثم ألقت بنظـــرة هائلة نحو أبي وصاحت في وجهه :

- ماذا فعلت بالولد ؟

انتبه أبي من ذهوله وأجابها بصوت كمن يدافع عن نفسه :

- لم أفعل به شيئاً !!

امتدت يدها وأزاحت كـــم جلبابي عن أعلى ذراعي الصغير وبنظرة فاقت سابقتها قالت :

- لماذا وشمتما الولد بهذه الصورة المشـــؤمة ؟!، لقد كتبتما عليه الموت.

انهار أبي تماماً ونهنه كالأطفال وقد أتت كلماتها على ما تبقى من قواه، ويبدو أن عاطفة الأنثى تحركت بداخلها فقالت في محاولة لتهدئته :

- كفى، كفى، سيعيش بإذن الله، لكن سأنصحك نصيحة إن خالفتها أنت الذي ستتحمل مسئولية هذا الطفل .

ككوة من الأمل فتحت فجأة أمام وجهه صرخ قائلاً :

- مُري كما شئت، لن أخالف نصيحتك أبداً، فقط أريده أن يعيش، هو ما بقى لي بعد أن رحلت زوجتي .

قالت أم ناصر :

- حســـناً، هذا الولد يجب أن يبقى معـــي هذه الليلة، وكل عـــام وفي نفس الموعد يجب أن تأتي به ليقضي معي بضعة أيام، وتذكر دائماً أن مخالفتـــك تعني القضاء على الولد .

هـــز والدي علامة الموافقة وتركني لديها وخرج هو وصديقه على أن يعود في اليوم التالي ليأخذني ويعود إلى القاهرة، بعدها فاق والدي من ذهوله على وفاة أمي وأصبحت أنا شغله الشاغل، لا تمضـــي بضعة ثوان إلا وينظر إلى صديقه ويســـأله ســـؤالاً جديـــداً عن « أم ناصر » وصديقه يطمئنه بأنها لها قوة روحانية شديدة وليست مشعوذة أو تتعامل مع الجن كما يفعل البعض، وأن الكثيرين من أصحاب النفوذ يأتـــون إليها ويأتمنونها على أدق الأســـرار، أما العامة فهم يخشونها بل يخشون الاقتراب من منزلها وهم يشـــيعون حكايات عن الأشـــباح التي تتحرك حوله وأن الجـــن يطيعونها طاعة عمياء، لكنها في الحقيقة كما قلت لك أنها روحانية قوية فلا تخشى على طفلك معها يا رجل .

في اليوم التالي ذهـــب أبي ومعه صديقه إليها ووجدني في حالة أفضل مما كنت عليـــه، أرضعتني أم ناصر من ثديها، بل ملأت زجاجـــة من صدرها وأعطتها لأبي وقالت له ألا يطعمني غيرها حتى وصوله إلى القاهرة وأعطتـــه ورقة بها عنوان لامرأة تكون

كمرضعة لي ومربية، وهذا مـــا تم بالفعل، مرت الأعوام حتى بلغت الخامسة عشر وأبي يلتزم التزاماً شديداً بموعده كل عام مع «أم ناصر»، كانت الأيام التي أقضيها معها تمثل شيئاً جميلاً بالنسبة لي، كنت أرجو أبي أن يتركني فترة أكبر وكانت هي سعيدة بي، كنت أرى فيها أمي التي لم أرها، وهي في الحقيقة مثل أمي لأنها أرضعتني وأنا عمري أيام، لكن القدر أحياناً يستيقظ من رقاده ليلطم لطمة نفسرها كبشر بأنها ضربة فقدت كل رحمة وهذا ما حدث معي .

٢٢

تململ في رقدته، حاول أن يتقلب ولم يتمكن، أشـــياء مقيدة بمعصميـــه تمنعه إلى حد ما من حريـــة الحركة بالإضافة إلى جهـــاز يضخ نفحات من الهواء إلى أنفه، فتح عينيه ســـريعاً ثم أغمضهما ســـريعاً، من الواضح أن الغرفة الـــتي يرقد بها تقع داخل مستشـــفى من المستشـــفيات التي تعب المال عباً ولا يقدر عليها سوى من هم في مرتبة فوق الأغنياء، في اللحظة الخاطفة التي فتح فيها عينيه لمح ممرضة شابة وبين يديها كتاب تلتهمه بعينيها فلم تنتبه إلى أنه عاد من غيبوبته، شكر لها ذلك حتى يمكنه أن يســـترجع في ذاكرته ما حدث، آخر ما بها حديثه مع صديقه «العســـيلي» في بيت « أم ناصـــر» وكانت آخر كلمات سمعهـــا منه المصيبة التي حطت فوق رأســـه بموت أبيه وهو لم يتعد الخامســـة عشـــر، حاول أن يأخذه عمه ليعيش مع أولاده لكنه هرب إلى أســـوان إلى «أم ناصر» التي قامت بتربيته وتعليمه

وحافظت عليه من «الرأس الشـــيطانية»، بعدها ودعه وذهب إلى محطة القطار واستقله إلى القاهرة، لكنه لم يدر بعد ذلك سوى بالاهتزازات الشـــديدة لعربة النوم التي يرقد بها قبل أن يقطع نصف المســـافة، بعدها .. بعدها .. حاول أن يتذكر أي شيء، لكن ذاكرته لم تســـعفه، فتح عينيه ثانيـــة بحرص ليتفحص الغرفـــة بتدقيق وحتى لا تلحظه الممرضـــة التي لا تزال تلتهم كلمات الكتاب، أغمض عينيه ثانية، حاول أن يستدعي ذاكرته، أتتـــه قوية فجة بأحداثها، عادت إليه الحقيقة كاملة، نعم فاق مـــن غيبوبته على هزات القطار الذي خرج عن قضبانه والتي لم تكن سوى نهاية لحلم طويل أو كابوس استغرق أسبوعاً كاملاً فقد فيه وعيه بعـــد الحادثة، تأرجح عقله بين أحداث مرعبة لا يعرف كيف كونها عقله الباطن وعاشـــها في حلم أو كابوس لمدة أسبوع ولا يفهم لها معنى، وبين الحقيقة التي دفعته للرقاد داخل هذه الغرفة بإحدى المستشفيات الكبرى . حقيقة مخجلة وصادمة ويمكن أن تطيح بمســـتقبله الكـــروي والعائلي، بل من المؤكد أن القانون ينتظره فهو لا يدري إلى ماذا انتهت الحادثة في تلك الليلة المشـــؤمة، هل هنـــاك إصابات لا يدري، غاب عن الوعي تماماً بعدها ليكتشـــف الآن أنه داخل المستشفى .

قـــرر أن يعطي عقله فرصة حتى الصباح ليفكر كيف يخرج من هذا المأزق، ما ارتكبه ليس ســـهلاً، الذكاء وخاصة لو كان

شـــريراً من واجبه أن يشـــير عليه بماذا يفعل، الذكاء الشرير ألهمـــه أن يهرب من الواقع لفترة، حتى لـــو كان هذا الهروب تمثيلية يجب أن يؤديها ببراعة كممثل ولد فوق خشبة المسرح، أي خلل في الأداء يمكن أن يورطه ورطة جديدة قد تفوق ورطته الأصلية، يجـــب أن يقوم بهذا الدور حتى يتكشـــف الأمور وقد ينجيه مـــن طائلة القانون إذا كان في الأمـــر ما يعاقب عليه، يجـــب أن يعلن عن خروجه من مرحلة الغيبوبة في الصباح، لكن يجب أن يدخـــل إلى مرحلة جديدة، مرحلة الهروب من الواقع، يوهم الجميع أنه إنســـان آخر لا يعرف أي شـــيء عن « مروان « ولا يدري عن ماضيه أي شـــيء، تحدث كثيراً أن إنســـاناً يفقد ذاكرتـــه بعد ارتطام شـــديد، نعم يتذكـــر الآن الصخرة التي ارتطمت بها ســـيارته، صخرة ضخمة كافية أن تفقد أي عقل ذاكرته، لكن ماذا حدث للتي كانت بجانبه، هذه مشكلة أكبر، ماذا سيقول عنها لزوجته، وما الذي يمكنه أن يفعله زوجها، هل فقدت حياتها، أم أُصيبت مثله وتم نقلها إلى المستشفى، هل هي الآن ترقد في نفس المستشفى، قد تكون في غرفة قريبة منه، هل يُخرج الممرضة عن متعة القراءة ويســـألها إن كانت الإسعاف أتت برفيقته، أم اختارها عزرائيل . آه يا «مروان» كدت أن تفقد حرصك ويخونك الذكاء، ســـؤالك عن رفيقتك يعني أنك في كامل الذاكرة، فكيف ســـتدعي هروبها ؟! .

إذا كنت تريد النجاح في دورك الجديد يجب أن يكون البند الأول الـــذي تعيه جيـــداً، كيف تكون حريصـــاً في كل حرف تنطق به. اســـتكان وقرر أن يظل صامتـــاً حتى الصباح، أقلقته فكـــرة مواجهته لزوجته «سمية» وطفلـــه، عليه أن يحيل وجهه إلى قطعة من الصخر وأن يســـجن ملامحه حتى لا تنطق بأية مشاعر نحوهما، لكن يا ترى هل ستأتي «سمية» بعد اكتشافها لخيانته؟!، وهل أتت الأيام السابقة، يا ترى هل ستأخذ طريقها إلى الطلاق بعد أن تطمئن عليه، هي وطفلهما الشـــيء الوحيد المضيء في حياته المتلئة بالغش والخداع، من حقها أن تلفظك، ســـأقول لها أنت تعلمين مدى حبي لك، ستجيب وهل من يحب يخون حبيبته مع غانيات الفراش، ســـأقول لها سامحي طفاسة العين وقذارة الشـــهوة، سأقول لها إن الخنزير مهما غسلوه يعود ليتمرغ في الوحل ثانية، ســـتجيب وما أدراني أن طفاسة عينك شفيت وأن الخنزير لن يعود للوحل، سأقسم لها بأن ما بداخلي قد تحول كما يتحول الليل إلى النهار، سأقول لها أن الكابوس الذي عشت فيه هذا الأســـبوع أعاد الضال إلى الطريق، سأقول لهـــا بأن الصفعة التي تلقيتها في بيـــت «أم ناصر» لا تزال تؤلمني وأنها كانت درســـاً لا ينسى، ارتدت أفكاره إلى الخلف تسأل، إذا كنت فعلاً نويت التوبة فكيف لا يزال الغش والخداع يســـيطر عليك ودفعك لأن تقوم بلعبة فقدان الذاكرة، شـــبه ابتسامة

مردداً في داخله، مجرد كذبة بيضاء للخروج من العاصفة التي تزأر حولك .

سلم عينيه للنعاس حتى يكون على استعداد لمسرحية الغد .

لم يتمتع سوى بنعاس متقطع وبعض من صور الكابوس المزعج يعود إلى عقله وعندما فتح عينيه وهو يرتدي شخصيته الجديدة حانت منه لفتة نحو الساعة وكانت العاشرة صباحاً، تلفت حوله وكانت الغرفة خاوية إلا منه والأجهزة التي تحيط به، أتت الأفكار متدفقة متزاحمة إلى رأسه، السوداء قبل البيضاء، أوبمعنى آخر الموقف لا يجد مكاناً لأفكار بيضاء، هل قاطعه الجميع، هل من المعقول مهما كانت فعلته أن يقاطعه والده ووالدته، « سمية « قد يكون الحق في جانبها أن لفظته بل المفروض أن تتخلى عن حبها وأدبها وتبصق في وجهه، وأن تقول لطفله هذا ليس أبوك، لكن الأب والأم دائماً يدفعهم الحب والحنان ويتحول الأبن أو الأبنة في نظرهم إلى مظلوم حتى لو كان ظالماً، أين صديقه «العسيلي»، كان يجلس معه قبل الحادث، تعاطى من الكيف في تلك الليلة ضعف ما كان يتعاطاه كل مرة، تذكر تحذير صديقه عندما قال له أنه تعاطى بما يكفي بأن يطيح برأس ثور، حاول أن يستجوبه عن سبب نهمه للكيف، لكنه لم يجبه برغم دوران رأسه الذي كان

يشبه رحاية جرش الحبوب، لم يعترف له بأنه سيخرج من لديه ليتقابل مع عشيقة سلبته لبه، تجرشـــه بين ذراعيها كرحاية جرش الحبوب، الكيف يجرش رأسه وهي تجرش رجولته، الكيف وأنوثتها شـــريكان في جرشه وفي خيانته لزوجته، تساءل وهو لا يزال وحيداً، هل لو كان لا يحمل أي نجومية أو شـــهرة كانت ســـتتهافت عليه العشـــيقة التي جذبته بكل عنف وهي متزوجة وتمتلك الكثير وليســـت في حاجـــة إلى النقود، أوقعته ولم تكن هذه المرة الأولى، وقع مع غيرها قبل ذلك وكانت علاقات نزوية لا تـــدوم لأكثر من مرة أو اثنتين علـــى الأكثر، عندما أنجب طفله أقسم بأنه لن يقترب من هذا الطريق ثانية، لكن مع هذه المرأة الإغراء كان أقوى من قســـمه .

تساءل كيف يحمل كل هذا الحب في قلبه لزوجته ويخونها، دائماً كانت نفس الإجابة، مجـــرد نزوات وغداً تخمد الدوافع إليها وينتهي الأمر . كما يقولون لا توجد جريمة كاملة، نفد بكل خياناته السابقة، لكن ما حدث تلك الليلة كشف ما ظل يحافظ على مداراته لفترة طويلة، مخدرات وعشـــيقة وحادث لا يعرف ماذا خلف وراءه، قد تكون عشيقته قد فارقت الحياة ويجد أمامه جبهتين، جبهة زوجته وأهلها، وجبهة زوج عشيقته، يضاف إليهما جبهة ثالثة مع القانون .

في تلك الليلة ترك صديقه «العسيلي» وكل الأشياء تتراقص حوله، حتى مقود السيارة كان يتراقص بين يديه، تقابل معها كالعادة في الطريق المستتر وأخذ طريقه نحو المقطم حيث شقته التي أهداها إليه أحد عشاق الكرة ليكرم نجمه المفضل، طوال الطريق تمتد يده لتناوش أنوثتها وهي تحذره بأن السيارة تتأرجح فوق الطريق مع ضحكة بغنج وكأنها تطلب المزيد، فجأة دوى صوت رهيب عنما انحرفت السيارة عن الطريق لتندفع نحو صخرة ضخمة ولم يدر بعدها سوى أنه الآن يرقد في هذه الغرفة داخل مستشفى لا يدري حتى اسمها، لكن من المؤكد أنها إحدى المستشفيات الفندقية.

حانت اللحظة الحاسمة عندما دخل الطبيب إلى الغرفة ووجده في تمام اليقظة، أطلق الطبيب صفيراً ضاحكاً قائلاً :

- لقد عاد نجمنا الكبير إلى الحياة ثانية .

أمسك بكل ملامحه لتبقى بلا معنى وسأل :

- لماذا أنا هنا يا دكتور ؟!

بدت تقطيبة فوق وجه الطبيب وسأل بدوره :

- ألا تتذكر شيئاً مما حدث ؟!

- آخر شـــيء أتذكره الاهتزازات الشديدة للقطار وصرخات من حولي ثم انقـــلاب العربة التي كنت بداخلها عندما كنت عائداً من أسوان .

- لكن إصابتك كانت نتيجة اصطدام ســـيارتك بصخرة كبيرة في منطقة المقطم .

حرك ملامح وجهه نحو الدهشة قائلاً :

- كل ما أتذكره هو حادثة القطار !!

تحركت ملامح الطبيب تلقائياً نحو الدهشة وقال وقد رسم فوق وجهه شبه ابتسامة:

- حســـناً، أرجو ألا تجهد فكرك الآن، المهم أنك والحمد لله لم تصب بأية كسور ويمكن أن تعود إلى منزلك وأسرتك ونرى بعد ذلك ما يمكن عمله .

خرج الطبيب ليواجه أســـرته بأنه استيقظ من غيبوبته لكن هناك اشـــتباه في فقدان الذاكرة مؤقتـــاً، لكن الطبيب تركه في حالة دهشـــة فعلية وهو لم يذكر له أي شيء عن رفيقته إن كانت أصيبت مثله أم رحلت عن الحياة، كان عليه أن يســـتعد لمواجهة أكبر مع أســـرته، كأمر الطبيب كان أول من ولج إلى الغرفة هما الأب والأم ولقد عانى كثيراً في كتمان مشـــاعره

أمام عاطفتهما ودموعهما وهو ينظر نحوهما في بلادة، لم تتغير ملامحه كثيراً سوى للدهشة عندما دخلت «سمية» وقدمت له طفله وعلى وجهها ابتسامة يعلم جيداً من خبرته معها أنها ابتسامة مفتعلة، ازدادت دهشة الجميع عندما لم يقابل طفله سوى بمداعبة بأصبعه على وجنته وكأنه يراه للمرة الأولى وانفجر الطفل في البكاء كنوع من الاحتجاج الطفولي، انتهى المشهد بصديقه «العسيلي» الذي حاول أن يداعبه ببعض الكلمات لكن لم ينل أكثر مما ناله من سبقوه من نظرات الدهشة والتعجب، حاول الطبيب أن يذكره بالموجودين لكن لم يزد عن ابتسامة وبعض هزات من رأسه، لكن عقله كان يعمل بنشاط شديد، يريد أن يصل إلى نتائج الحادث، من الابتسامة المفتعلة لزوجته «سمية» علم أنها كشفت خيانته، لكن ماذا عن رفيقة الخيانة، ماذا حدث لها، ماذا عن الكيف الذي ساقه إلى هذه الحادثة، ماذا عن الصحف وما قيل فيها، ماذا عن مستقبله الكروي، ماذا كان رد فعل جمهوره، كلها أسئلة كان على استعداد أن يدفع بضع سنوات من عمره ويصل لإجابة عنها .

عاد إلى المنزل بعد أن سمح له الطبيب بالعودة على أن يعامل معاملة خاصة حتى تعود إليه ذاكرته تدريجياً مع توصية أن يعرض على طبيب نفسي، لكن زوجته بدأت علاجه الفوري، ضمته إلى صدرها وكان لقاءاً حاراً أغدقت عليه الحب دون

حساب وتجاوب معها بنفس الحرارة بعد أن فشل في أن يمثل دور الخجل وكأنه يراها لأول مرة، هدأت الأنفاس، أشعلت الضوء الخافت بجانب الفراش لتقرأ ملامح وجهه جيداً وقالت وقد أطلقت يدها في مداعبة لشعره :

- إلى متى ستظل تمثل هذا الدور ؟!

أغمض عينيه وقد أحس بأن قدرة الشر المحنكة خانته وأنه فقد القدرة على المناورة، قال وصوته يحمل الأسف حقيقة :

- يمكنني أن أمثل على العالم كله، أما أنت فلا، كم شعرت بضعفي وأنا بين ذراعيك كطفل صغير بين ذراعي أمه، ابتسامتك المفتعلة في المستشفى أخبرتني بأنك قد علمت بكل شيء، كجبان قررت أن أهرب من مواجهة الجميع وخاصة أنت بافتعالي لفقدان الذاكرة، بين ذراعيك الآن أحسست بأنك لا زلت تحملين حباً لا أستحقه، فهل ستصدقينني لو أقسمت لك بأنني سأقتل نفسي لو سقطت سقطة أخرى .

قالت وهي لا تزال تداعب شعره :

- لو كان في نيتي ألا أسامحك ما كنت استقبلتك بين ذراعي، علمت كل شيء، وداويت كل شيء، من أجل أن أحتفظ بك ومن أجل طفلنا وأيضاً حتى لا يضيع مستقبلك الكروي

ومكانتك بين جمهورك، عند نقلك إلى المستشـــفى اكتشف الطبيب أنك ارتكبت الحـــادث وأنت تحت تأثير المخدرات، لكني رجوتـــه أن يتكتم الأمر ومن حســـن الحظ أنه كان من أشـــد المعجبين بك، قيد الحادثة على أنها نتيجة للإرهاق وخاصة أن المصاب الوحيد هو السيارة، سأوفر عليك خجل السؤال عن من كانت معك بالسيارة، من حســـن حظك أيضاً أنها لم تصب وتصرفت بجرأة وســـرعة، فتحت باب الســـيارة وهربت من مكان الحادث وقامت بالاتصال بالإسعاف من هاتف عمومي، والغريب أنها أيضاً اتصلت بي على تليفون المنزل ويبدو أنه كانت تتصل بك على هذا الرقم أحياناً واخبرتني ســـريعاً وأغلقت الهاتف، تمكنت مع أبيك من الوصول سريعاً إلى المستشفى الذي نقلت إليه وخاصة أنك شـــخصية معروفـــة وتمكنت من الحديث مع الطبيب ولقيت منه ترحيبـــاً في أن يتكتم على خبر المخدرات .

علمت بحاســـة الأنثى أن الموضوع به امرأة أخرى وأنها هي التي هاتفتني عقب وقوع الحادث، وكانت المفاجأة مع حســـن الحظ أنني بعد أن تســـلمت السيارة بعد فحصها السريع من الشرطة، لقطت أنفي رائحة عطر أنثـــوي لا يزال عالقاً بها يختلف عن عطري، بدأت أفحصها ومن حســـن الحظ وجدت أسفل المقعد الـــذي بجانبك حافظة نقـــود صغيرة وجدت بهـــا رقم هاتف الســـيدة التي كانت معك فاتصلت بها وطلبت منها الحضور

لاســـتلام حافظتها، اعترفت أمامي بالعلاقة التي بينكما وأنها شـــديدة الأسف وأقسمت بأنها ســـتلحق بزوجها في أحد البلاد التي يعمل بها.

هذا ملخص الأحداث التي أعرف أنك تتوق لمعرفتها، وخاصة ما يتعلق بمستقبلك الكروي وشهرتك، أمسك بيدها يقبلها وأحســـت بدموع يقول سعيرها بأنها توبة حقيقية، قال والدموع لم تنقطع :

- أقســـم لك صادقاً بأن كل ما يهمني الآن هو أنت وكيف أكفـــر عن جريمـــتي، نعم جريمتي نحوك، وكيف أغســـل من داخلك هذه الإساءة .

- لقد ســـامحتك قبل أن تفيق من غيبوبتك، أعلم أن لكل حصان كبوة، ولكل رجل هفوة أو نزوة، والسيدة العاقلة هي التي تسامح لتعيده إلى بيته وأسرته، ولا تنسى حبنا، وأيضاً يجب أن تشكر طفلنا الذي ربطنا معاً .

- هناك شيء أود أن أخبرك به .

قالت مبتسمة :

- هل هي نزوة مع أخرى .

- لا، لكن هذا الكابوس الذي عشـــت فيه طوال فترة غيبوبتي وحتى انتبهت منها، كابوس مرعب، فهل أذهب إلى طبيب نفسي ؟

- ولماذا لا أكون أنا طبيبتك النفســـية، حتى لا تبوح بسرك لآخر .

- أرجو هذا، أراح رأســـه فوق صدرها وكفيلم سينمائي سرد عليها الأحداث منذ بدايتها، منذ ظهور الرأس الشيطانية وحتى منـــزل «أم ناصر»، وحادثة القطار التي كانت في نهاية الكابوس فأيقظته من غيبوبته . شقشق الفجر ورأسه لا تزال فوق صدرها تستمع إليه بكل اهتمام، قالت والابتسامة الوديعة المتسامحة لا تزال فوق شفتيها :

- الرأس الشـــيطانية وكل تبعاتها الـــتي رأيتها في الكابوس هي جميـــع أعمالك الشـــريرة التي ارتكبتها طـــوال حياتك وحتى فعلتك الأخيرة، أما «العســـيلي» فهـــو رمز يتأرجح بين الشر والخير، فهو الذي جذبك نحو جلسات الكيف، وهو أيضاً الـــذي رأيته في الحلم أو الكابوس يحاول أن يحميك من الرأس الشيطانية التي ترمز للشـــر بداخلك، والرأس الشيطانية التي على كتفه قد تكون رمزاً إلى الطريق الذي سلكته أمه لإنجابه وقد تكون قصته التي رواها لك خلال الكابوس حقيقية وأن أمه لجأت إلى الشـــعوذة والدجل للإنجاب .

قال وهو يدفن رأسه في صدرها وماذا عن «أم ناصر» :

ضحكت قائلة :

- إنها الضمير الذي يحاول أن يوقظك لتبتعد عن الشر ومع ضحكة وقرصة أذن أردفت وعن خيانتي .

قال وهو يغيب معها في قبلة طويلة :

- أؤكد لك أن «أم ناصر» نجحت، وما أشعر به الآن هو خير العالم كله وقد تجسد فيك وأنت ستزرعيه بداخلي .

تنويه

جميع الأسماء التي وردت بالرواية من الخيال

للتواصل مع الكاتب

Email: edwardgirges@yahoo.com